بين أبو الريش وجنينة ناميش

يوسف السباعي

الناشر
مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠

مؤلفات
يوسف السباعي

قصص
قصيرة

بين أبو الريش
وجنينة ناميش

الإهــــداء

إلى رفيقى الصبا ...

وزميلى الطفولة ...

إلى أخوى .. (**محمود**) و (**أحمد**)

أول من جال معى :

بين أبو الريش وجنينة ناميش

« يوسف السباعى »

مقدمة

هذه جولة بين « أبو الريش وجنينة ناميش » وما حولهما ... جولة فى قصص ، فقد تبين أن القصة أضحت فرضا واجبا على .. وأن القارئ يأبى أن يقبل منى إلا قصة ... بل إنه ـــ سامحه الله ـــ مقتنع تمام الاقتناع بأنى لا أعرف غير القصة ... ولا أجيد فى غير القصة ... فقد كتبت ذات مرة مقالاً نقديا فى الغناء ، فجاءنى خطاب من أحد القراء يدهش فيه كيف أكتب فى الغناء وأنا قصصى ! .

ولن يضيرنى ذلك فى الواقع ... لأنى أحب كتابة القصة ولأنى أستطيع أن أضع كل ما أود قوله من نقد وأفكار وخواطر فى أية قصة ... رغم أن القصة تحتاج إلى جهد فى حبكها أشق كثيرا من مجرد السرد العادى للخواطر .

وهكذا وجدت نفسى لا أستطيع أن أجول بالقارئ فى مرتع صباى إلا إذا أغريته بقصة ... حتى لا يمل السير معى ... وحتى تلهيه القصة إذا لم يكن من غواة التجوال بين الشوارع والأزقة .

وثمة سبب أخر يزج بـ « جنينة ناميش » فى قصصى ... وهو سبب عكسى للسبب الأول .

فبينما نجد أن التجوال فى « جنينة ناميش » هو الدافع إلى الكتابة ... وأن القصة ذاتها ليست سوى « برشامة » أضع فيها الجولة ... نجد فى أحيان أخرى أن فكرة القصة قد تكون حاضرة .. وإنى لا أكاد أجلس للكتابة لإبرازها إلى حيز الوجود باحثا لها عن مكان وزمان أجعلها فيه وأجرى حوادثها به حتى أجد ،

« جنينة ناميش » قد أطلت من رأسى ... وإذا بالسبل قد ضاقت بى إلا عن السد البرانى ، والمنيرة ، والسيدة ، وزين العابدين ... وإذا بى أضع القصة برغمى فى هذه الأمكنة الرابضة من قديم العهد فى الذاكرة .

ويبدو لى أن هذه المنطقة من القاهرة ... أعنى منطقة « السيدة زينب » وما حولها من سيدى زينهم .. إلى الماوردى ، إلى الناصرية ، إلى درب الجماميز .. كانت موطنا لجميع المصريين ... فما قابلت إنسانا إلا يعرف حوض « سقى الحمير » فى ميدان المدبح ... ويذكر جيدا « الأبوة » الموصلة من حارة السيدة إلى جنينة ناميش وينبئنى أنى أذكره بأيام صباه ... أيام مدرسة محمد على ، وشارع الشيخ سلامة ، وسيدى الحبيبى ، وسيدى الطيبى .

ولقد كان أول من هلل وكبر لهذه الجولة ... الأستاذ الفنان « **الحسين فوزى** » ... فقد أصر على مصاحبتى بريشته ليسجل للتاريخ صورا مصرية أصيلة ... ويبرز لوحات من صميم الحياة المصرية ... و لم يكن ذلك عليه بالأمر العسير ... فقد وجدته أكثر منى حنينا إلى هذا الحى وأشد منى معرفة به ، وقال لى مفاخرا : إذا كنت أنت ربيب جنينة ناميش ... فأنا ربيب البغالة .

ولا أظننى قد وفيت الحى حقه بهذه الأقاصيص ... ولا استنفدت بها كل ما فى الذاكرة عنه ... ولا أظننى إلا عائدا إليه مرة أخرى .. فما زالت ذكرياته تملأ رأسى ... ولست بمستريح حتى أسكبها على الورق .

« **يوسف السباعى** » .

ف أبو الريش

كانت حياته ــ على رغم أم سيد ــ محتملة ، حتى كان ذات يوم ، مات الشيخ زكى وأضحى ضريح « أبو الريش » بلا خادم ، ونقص أولياء الله الصالحون واحدا ، وبدا « لأم سيد » أن كرسى الولاية الشاغر يجب ألا يضيع من العائلة الصالحة ، وأن الشيخ « على لوز » قد سنحت له فرصة ذهبية يجب عليه انتهازها ...

تبدأ القصة فى حجرة فى الدور الأرضى بحارة الغزالات بالمدبح ، فى أحد جوانبها شباك من الحديد يطل على الشارع يبدو المارة من خلاله رائحين غادين ، وتتصاعد منه أصوات الباعة ورنين طاسات العرقسوس ، وفى الواجهة باب يؤدى إلى فناء الدار بدا منه بضعة أطفال يمرحون ويلعبون النحلة ، وفى الجانب الآخر باب يؤدى إلى المطبخ .

وعلى الجدران علقت لوحات قرآنية وحكمية ، مثل : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ و ﴿ نصر من الله وفتح قريب ﴾ .

أما محتويات الحجرة فلا تزيد عن كنبة ذات مساند ، وبوفيه عتيق ، وماكينة خياطة صغيرة ، وثلاثة أزواج قباقيب ، و « كليم » ، وطبلية عليها ورق ملوخية ، و « أم سيد » بيدها المخرطة .

تبدو « أم سيد » وهى تخرط الملوخية وتهتز معها ذات اليمين وذات الشمال ،

فتهتز معها كتلة الشحم المكدسة على جسدها ، وتتذبذب على رأسها الأوية التى شغل بها المنديل الذى تزدان به .

يطرق النافذة طارق فتصيح « أم سيد » بصوت موسيقى ذى نبرات ممدودة كأنها تقاسيم الصبا :

ـــ مين ؟

ويجيبها صوت أجش عميق :

ـــ العيش .. عايزه كام رغيف النهارده ؟ .

ـــ عشره .. النص طرى والنص ملدن .

ويمد الرجل يده من النافذة بالعشرة أرغفة ويضعها على حافة النافذة من الداخل كعادته ، ثم يخط علامة بالطباشير على ضلفة النافذة يسجل بها الراتب اليومى وينصرف فى سكون .

وتدور « أم سيد » بنصفها الأعلى ثم تمد ذراعها فتتناول الأرغفة من حافة النافذة وتلقى عليها نظرة فاحصة ثم تضعها جانبا وتواصل عملية الخرط مترجحة الأوصال مترنحة الأعطاف .

وفجأة ينطلق من الباب ما يشبه القذيفة المتطايرة فى الجو فتصطدم بحديد النافذة وتكاد ـــ لولا ستر الله ـــ تصيب الزجاج فتحطمه . ثم تهبط مستقرة فى جوف الملوخية المخروطة .

وتنزع « أم سيد » القذيفة ، ويرتسم على وجهها خليط من الذعر والغضب بعد أن يتضح لها أن القذيفة ليست سوى « نحلة » أفلتت من أحد الصبية الذين يلعبون فى فناء الدار ، وتصيح هادرة ثائرة .

ـــ واد يا سيد .

ولا يجيبها سيد .. فقد فر مع بقية الصبية بمجرد انطلاق النحلة .

وتكرر المرأة نداءها دون جدوى ، ثم يصيبها اليأس والتبرم فتضع النحلة تحت فخذها السمين وتنفس عن كربتها ببعض الشتائم والسباب والتهديدات ، ثم

تواصل خرط الملوخية .

ولا تمضى لحظة قصيرة ، حتى تسمع وقع خطوات تقترب من البـاب متثاقلة ، وتصيح المرأة منصتة فى عجب ، ويفغر فوها عندما ترى الداخـل وتضرب صدرها بيدها صائحة :

ــ إيه الِّى جابك بدرى كده ، كفى الله الشر .

ولاشك أن المرأة معذورة فى عجبها ، فإن الساعة ما زالت العاشرة ، وما تعود زوجها أن يحضر إلى الدار قبل صلاة الظهر ، ولا يمكن أن يعنى قدومه فى هذه الساعة إلا أمرا جللا .

ووقف « أبو سيد » أو « الشيخ على لوز » ــ كما تعود أن ينادى فى مهنته الأخيرة ــ أمام المرأة لينظر إليها شزرا وقد ارتسمت على وجهه علامات السخط والتبرم .

وعادوت المرأة سؤالها فى خشية وغضب :

ــ ما لك ؟ . ياخويا انطق .

ــ قرفت . خلاص .

أجل ، إن الشيخ على قد أعلن العصيان . وصمم على الثورة على مهنته الجديدة التى أرغم عليها إرغاما .

ما له هو ولكل هذا ، ما له هو ولهذا المظهر المحترم ، والذقن المسترسلة ، والسبحة المدلاة ، والشفة المتمتمة ؟

من كان يصدق أن المصير سينتهى به إلى هذه الحال ؟ .

من كان يصدق أنه . وهو المهرج الأكبر ، والبهلوان الأعظم ، الذى تقلب فى كل المهن والحرف ، سينتهى به الأمر إلى أن يكون شيخا مطمطما ، عابدا متبتلا ، ووليا من أولياء الله ؟

إنها لاشك مهنة مريحة مربحة ، ولكنه رغم ذلك لم يعد يطيقها ، إنه يستطيع القيام بها لأيام أو لأسابيع .. ويستطيع أن يتقنها أيما اتقان ما دام الأمر لا يتعدى

مدة محدودة ، أما أن يقوم بها إلى أخر العمر ، أو مؤبدا ، فذلك ما لم يستطع عليه صبرا .

رحم الله أيام العز ، عندما كان « الشيخ على » حرا طليقا ، تلك الأيام التى كان يعمل فيها سريحا يجوب الطرقات والأزقة .. جريا وراء الرزق ، الرزق المستعصى ، الصعب المنال .

إنه يذكر أول مهنة عمل فيها وهى صبى حاوى إذ كان يحمل جراب المعلم « سمبل » ويطوف معه الدروب والحوارى ، ويجلس لمعاونته أمام المقاهى ووسط حلقات الصبية ، فيخرج من فمه الثعابين ويدخل السيف فى بطنه ويخرجه من ظهره .

لقد علمه سمبل الشىء الكثير ، علمه كيف يخدع الناس ، ويحتال عليهم .

كان « سمبل » أستاذه الأول فى علم الحياة ، لقد أفهمه أن كل الناس حمير ، لا فرق فى ذلك بين حقير وخطير ، كلهم سواء فى المخبر وإن اختلفوا فى المظهر ، ضع الفقير مكان الثرى يصبح خطيرا ، وضع الثرى مكان الفقير تجده أشد حقارة .

لقد علمه أنه ليس فى الحياة شىء صعب ، وليس فيها أمر بعيد المنال أو مستحيل الوقوع ، وعلمه أن يعمل فى أى عمل ، وألا يظن إنه يجهل شيئا .. إن الزمن يفعل كل شىء ، فليدع كل شىء للزمن ، فهو لابد فاعله .

إن الزمن يجعل من الحبة الجافة شجرة مورقة ناضرة ، ويجعل من النطفة إنسانا كافرا مغرورا ، ومن الكافر المغرور عظاما نخرة ، وقد يحييها بعد ذلك وهى رميم ، أفيصعب على الزمن الذى يفعل كل هذا أن يجعل منك إنسانا وأنت حمار ؟!

لقد علمه « سمبل » الشىء الكثير ، علمه ألا يتعجب فى دنيا كلها عجب .. ما لك تدهش فى عالم ليس به إلا كل ما يدهش !

لا تدهش إذا ما رأيت كلبا يطل من عربة بويك تنهب الأرض نهبا .. لا تدهش إذا قالوا لك إن الكلب ذاهب إلى الطبيب لأنه تناول من

المارون جلاسيه ما أتلف معدته .. لا تدهش إذا احسست بقــرصة الجوع فاستعصت عليك شقة وطعمية ... لا تدهش إذا ما نفقت ومات الكلب ، فلم تذرف عليك دمعة ، وشبع الكلب بالعويل والبكاء .. ولكن لتدهش ما شاء لك الدهش ، إذا لم تجد الصحف مجللة بالسواد ، و لم تجد الكلب العزيز منعيا بالخط العريض .

كل هذا علمه له سمبل ــ طيب الله ثراه وأكرم مثواه ــ ولقد كان « الشيخ على » قمينا بأن يبقى مع الرجل حتى يخلفه بعد وفاته ، لو لا أن قرصة الجوع ذات يوم اشتدت عليه ، فاعتدى على الفطيرة التى كان يستعملها الرجل فى ألعابه ، والتى كان يضعها فى أسطوانة مستديرة ذات غطاءين يكشف أولهما فتبدو العلبة فارغة ، ويكشف الثانى فتبدو الفطيرة فيها .

ولكنه فى ذلك اليوم خذلته العلبة ، عندما كشف الغطاءين لأن الفطيرة كانت مستقرة فى جوف « الشيخ على » أو « الواد على » كما كان يسمى وقتئذ .

وطرده يومذاك بعد أن نتشه علقة ما زالت أثارها باقية على جسده حتى الآن .

وانطلق « الشيخ على » بعد ذلك فى الحياة ، وهو مشبع بفلسفة سمبل ، مقتنع تمام الاقتناع بأنه ليس هناك شىء مستعص ، وأنه يستطيع أن يفعل كل شىء .

واشتغل أول ما اشتغل بمسح الأحذية ، مارا على المقاهى ، ينقر الصندوق بفرشاته ، صائحا :

ــ تمسح يا بيه ؟ .

و لم تكن لديه فى أول الأمر أية فكرة عن مسح الأحذية ، وكان إذا ما جلس إلى الحذاء بدا له كأنه معضلة كبرى ، ولا يكاد يتم مسحه حتى يكون قد مسح معه نصف الشراب .. ومع ذلك ، فلم تكد تمضى بضعة أيام ، حتى أضحت المسألة سهلة هينة .. لا تحتاج إلا إلى وش تنفيض ووش ورنيش ، ووش تلميع .. وأضحت قطعة القطيفة فى يده ــ على حد قوله ــ زى الحلاوة ،

وصدقت نظرية « سمبل » فى أن الزمن كفيل بكل شىء ، وأنه يعلم الإنسان ما لم يعلم .

واستيقظ ذات يوم فإذا بالصندوق قد سرق ، وهم بأن يحزن ، ولكنه تذكر أن حياته كانت يمكن أن تسرق بدل الصندوق ، فحمد الله واستبدل بحزنه ضحكة رنانة ، وسرعان ما انطلق فى الحياة مرة أخرى ، وكانت مهنته الجديدة ، هى مساعد أراجوز .

كان صاحب الأراجوز « إبراهيم بندق » قد تعارك مع مساعده ، فلم يكد يلقى صاحبنا حتى تهافت عليه ، وعرض عليه أن يعمل معه ، ولم تكن مهمة المساعد بالمهمة الشاقة ، أو العسيرة .. فما كان عليه سوى أن يمسك الطبلة وينقر عليها بضع نقرات .. ثم يجيب الأراجوز عن أسئلته من آن لآخر .

ولم يتردد الشيخ على فى قبول المنصب الجديد ، رغم أنه تردد أول الأمر ، وخشى ألا يعرف كيف يدق الطبلة ، ولكن بعد بضعة جولات كان يقوم بمهمته خير قيام .

وفى ذات يوم مرض « بندق » وأشرقت عليه الشمس وهو جثة هامدة ، وأصبح الشيخ على وارثا لمهمات الأراجوز ، وأضحى هو نفسه أراجوزا .

وتردد « الشيخ على » قبل أن يأخذ على عاتقه المنصب الجديد ، فقد كانت المسألة فى هذه المرة تحتاج إلى مهارة خاصة ، وإلى موهبة فى الصوت ، فليس صوت الأراجوز بالصوت الذى تستطيعه كل حنجرة .

وبدأ يقوم بالتجارب والتمرينات ، ومرت الساعات ، وهو لا يفعل شيئا سوى التزمير بحنجرته كأنه آلة موسيقية انهمك صاحبها فى تصليحها .

وأخيرا أنعم الله عليه ، بصوت الأراجوز ، وأحس « الشيخ على » بفرحة كبرى ، واندفع راقصا صاخبا ضاحكا ، وبدا أولى جولاته الموفقة .

وانسجم صاحبنا فى مهنته الجديدة ، وأدخل فيها من التجديد والابتكار ما أخرجها من جمودها وركودها ، وبدأ يحفظ أحدث المنولوجات وأكثرها

ذيوعا ، لكى يلقيها بلسان الأراجوز .

وأعاد « الشيخ على » رسم العرائس ، واخترع شخصيات وأسماء جديدة غير التى اعتادها الأراجوز منذ عشرات الأعوام ، وبدأ يخلق من صندوقه عالما آخر . ولم ينس أن يخلد ذكرى أستاذه الأول فصنع إحدى الدمى وسماها « سمبل الحاوى » .

وسارت حياته منذ ذلك الحين هنيئة رغدة . وزاد رغدها عندما سنحت له الفرصة وواتاه الحظ . فاستطاع الالتحاق بعمل ليلى فى تياترو « أبو الريش » فاتسع رزقه وزادت موارده ، وأضحى أراجوز النهار وبلياتشو الليل ، لا يكاد يكف لحظة عن الضحك والتهريج .

وما من شك فى أن الرجل كان ينوى أن يقضى حياته وهو على حاله تلك من الفرفشة ، والمهيصة ، يغازل هذه ويداعب تلك ، لا هم له إلا الترويح عن نفسه حتى أصابه الله بشر ما يصيب به عباده ، وابتلاه بالكارثة الكبرى ، الزواج ، فقلبت حياته رأسا على عقب .

لقد أحب المسكين ، أحب « البت عزيزة القرد » بنت « الشيخ زكى القرد » شيخ أبى الريش وخادم ضريحه ، الرجل الطيب ذى الكرامات والبركات .

وكثيرا ما يجلس « الشيخ على » الآن ، فيتأمل « عزيزة » أو « أم سيد » ويهز رأسه متعجبا أسفا ، ويسائل نفسه كيف هيأ له الخبل أن يحبها .. وماذا أبصر فيها وقتذاك مما يعشق ويسبى ؟!

الحمار ، الأبله ، لقد نسى نصيحة أستاذه « سمبل » الذى طالما حذره من النساء ونصحه — وهو ما زال صبيا — بألا يقع فى شرك الزواج ، وأن يبعد جهده عن ذلك الطعم المسمى بالحب .

ومع ذلك ، فقد أحب ، وطب ، كأى مدب ! .

لقد أغراه الطعم بالتهامه ، وأوقعه فى شرك « عزيزة » ، ردفان ثقيلان ،

ونهدان ناضجان ، أوشكا من فرط الثقل والاستواء أن يتساقطا .

رأها ذات مرة من ثقب حاجز الأراجوز ، فأخذ بها ، وبدأ فى مغازلتها ، على لسان الأراجوز مدعيا أن الأراجوز يحب القشطة ويموت فى المهلبية . وأحست « عزيزة » أنه يوجه إليها القول ، فعلا وجهها الاحمرار ، وانصرفت مدعية الغضب .

واستبد به الحب وقتذاك فلم تمض بضعة أيام حتى ذهب إلى « الشيخ زكى القرد » يخطبها منه .

ورحب به الشيخ زكى فى مبدأ الأمر . ولكنه عندما تبين مهنته أبدى كثير اشمئزاز ، وأنبأه — بالاشتراك مع أم عزيزة — أنه لا يقبل أن يزوج ابنته أراجوزا أو بلياتشو ، وأنه إذا كان يرغب فى زواج ابنته رغبة صادقة فإن عليه أن يغير مهنته أولا .

ومرت الأيام به وهو يقارن بين عزيزة والأراجوز ، وأخيرا ، وللأسف الشديد فضل عزيزة .

وهكذا وجب عليه أن يبحث له عن مهنة جديدة ، ولم يكن ذلك عليه بالأمر العسير . فسرعان ما باع مهمات الأراجوز واستعاض عنها بعربة يبيع فيها « على لوز » ويضع عليها لوحة للتنشين وبندقية ويضع علب ملبن ، وبصوته الجهورى الرنان ينادى :

— فتح عينك تأكل ملبن .

وتزوج الشيخ على بعزيزة بعد أن وطد مركزه فى تجارته الجديدة ، ولم تكن حياته بعد ذلك بالشئ الذى لا يحتمل بل كان يتساوى فى التعاسة مع سواه من الأزواج .

أجل ، كانت حياته — على رغم أم السيد — محتملة ، حتى كان ذات يوم ، مات الشيخ زكى ، وأضحى ضريح « أبو الريش » بلا خادم ونقص أولياء الله الصالحون واحدا .

وبدا لأم سيد ولأم أم سيد (فاطمة القرد ، زوجة المرحوم الطيب الذكر) أن كرسى الولاية الشاغر يجب ألا يضيع من العائلة الصالحة وأن « الشيخ على لوز » قد سنحت له فرصة ذهبية يجب عليه انتهازها .

وذهل « الشيخ على » فى مبدأ الأمر ، فقد كان واثقا أنه آخر من يصلح لهذا الأمر ، وأن طبيعته المهرجة البهلوانية لا تتلاءم قط مع هذا المنصب الدينى الخطير . ولكنه وجد أن مفاوضة زوجته وحماته ضرب من المستحيل .

وارتبك « الشيخ على » فى بادئ الأمر ، فما كانت لديه أقل فكرة عن أبسط مبادئ الدين ، ولكنه تذكر فلسفة سمبل وأنه ما من شئ فى الحياة إلا والزمن كفيل به .

وأرسل الرجل لحيته .. واستبدل بالتهريج عبوسا .

واستمر قائما فى ولايته ومشيخته مرضيا كل من حوله مقنعا كل الناس إلا نفسه .

أجل . لقد أحس أنه لم يعد يطيق مهنته ، وأن لحيته تثقل عليه ، وأنه كان أقرب إلى الله وهو مخلص فى تهريجه منه وهو منافق فى عبادته .

لقد كان بالأراجوز يضحك الناس ، فأصبح بلحيته ومسبحته يضحك على الناس .

لا .. لا .. لقد صمم على أن يعود إلى سيرته الأولى .

وعاد فى الصباح إلى بيته يعلن الثورة على « أبو الريش » وعلى « أم السيد » .. وقف أمام « أم سيد » وقد أمسك بلحيته يهزها ويقول فى تحد :

ــ خلاص زهقت .. زهقت من الدقن دى .

ــ قصدك إيه ؟

ــ يعنى مش ضرورى دقن . هو لازم الواحد يربى دقنه عشان يقرب من ربنا ؟

ــ انت يا راجل لازم اتجننت .

وتركت أم سيد مكانها أمام الطبلية ، وأمسكت بالمخرطة ورفعتها فى يدها وأمرت « الشيخ على » أن يعود إلى الضريح بالتى هى أحسن .

وخرج « الشيخ على » مطاطئ الهامة عائدا إلى الضريح ، ولكنه مر فى طريقه بالرجل الذى ابتاع منه الأراجوز فاستعاد لنفسه بعض الدمى .

ودخل « الشيخ على » داخل الضريح فإذا به يسمع صوت نحيب قريب ، وأبصر امرأة بجوار الضريح تبكى بكاء مرا فسألها عما بها فأنبأته أن ابنها على شفا حفرة من الموت وأنها تسأل سيدى « أبو الريش » أن يأخذ بيده .

وفكر « الشيخ على » برهة فوجد أن ما تعود أن يفعله من تعاويذ وما يمنحه من بركات ليس سوى خداع فى خداع ، وأن خير ما يمنحه للمرأة مخلصا هو أن يسليها ببعض اللعب بالأراجوز .

وبدأ الرجل لعبه داخل الضريح والمرأة فى دهش شديد ، ورويدا رويدا بدأت أساريرها تنفرج حتى شاع فى وجهها السرور .

وفجأة أحست المرأة بنور يملأ الضريح ، ونفذت إلى أنفها رائحة بخور جميلة قوية ، وخيل إليها أنها تسمع صوت ابنها يصل إليها من بعيد .

وعندما عادت إلى دارها وجدت ابنها قد أبل مما به .

وشاع فى الحى خبر المرأة ، وخبر معجزة « الشيخ على لوز » والأراجوز .

ومنذ ذلك اليوم اعتقد الناس اعتقادا جازما أن « أبو الريش » يحب الأراجوز ، وأنه لا يمنح كراماته إلا بالتوسل بالأراجوز .

ولم يفكر « الشيخ على » بعد ذلك فى ترك الضريح ، فقد سره أن يعبد الله مخلصا بطريقته الخاصة ، وتركه الناس يلعب بدماه كما يشاء .

ماذا يضيرهم من ذلك ما دام يمنحهم بركاته وكراماته ؟ إن الرجل لاشك قد أصابه خبل ، ولكن أليس الخبل شرطا من شروط الولاية ؟

وماذا يضير « الشيخ على » أن يقال عنه إنه مخبول مجذوب ؟.

بقى بعد ذلك أن نسأل الله : أيهما أقرب إليه ؟! فقيه مخادع ، أم مهرج أمين ؟ .

فى جنينة ناميش

كان يعتبر نفسه فى « جنينة ناميش » شخصية عامة يشترك فى كل موكب ويساهم فى كل حفل عام ، وكان أكثر ما يطربه أن يمتطى عربة الجوافة ويقود الجمع الغفير من الصبية معاونا البائع فى صياحه : « عال يا جوافة بقرش الوقة » ، « اوزن بره ... بقرش الوقة » .

لست أدرى ماذا فعل الزمن به .. ولا على أى حال أصبح ، وإن كنت لا أشك فى أنه ــ بحساب السنين ــ قد أضحى رجلا عاقلا متزنا ، وأن الزمن قد رزأه بالزوجة والأولاد ، فأصبح رب عائلة وعماد أسرة ، وأثقل كاهله بمسئولية الرزق وهموم الحياة .

ومع ذلك فأنا لا أستطيع تصوره إلا بصورته القديمة التى تعودت أن أراه عليها منذ عشرين عاما .. فقد كانت تلك هى هيئته وطابعه التى يجب أن يكون عليها دائما .. والتى يستحيل عليه أن يبدو فى غيرها ، مهما مر به الزمن وعدت عليه السنون .

إن « جوده » ــ مهما حدث للدنيا وللناس ــ لا يمكن أن يكون غير « جوده » الذى كان يخدم فى بيتنا لبضع سنين حوالى عام ١٩٣٠ .

كنا نقطن وقتذاك فى « جنينة ناميش » قرب سيدى الأربعين فى منزل يقع على ناصيتى شارع الخليج وشارع الأربعين المواجه لكوبرى المنيرة .. وقد حدثت فى

البيت أزمة خدم عقب هروب الخادم ، وزواج الخادمة .. ومر بنا أسبوع بلا خدم ، حتى تطوعت « أم نجية » الغسالة بإحضار ابنها « جوده » للخدمة فى البيت .

وحضر « جوده » وبدأ أعماله فى الدار وخارج الدار . ولست أشك فى أنه لولا خوف والدتى من « أم نجية » لما قبلت أن تبقى عليه لحظة واحدة .. فقد كان مخلوقا متعبا كثير المشاكل ، جلابا للمتاعب والمصائب .

كان « جوده » نموذجا للتشرد ، والشقاوة ، والعفرتة ، والإجرام الصبيانى .. وإنى لأذكر صورته وقتذاك بشعره الأسود المشوش الشبيه برأس العبد ، ووجهه الأسمر المستطيل ، وأسنانه الفلجاء ، وأذنيه الكبيرتين ، وجسده النحيل الشبيه بجريد النخل ، وجلبابه الزفير المخطط ، وقد شمر ذيله الجرار ووضعه فى اللباس الدمور ، فكشف غن ركبتيه السوداوين المليئتين بالجروح والندوب .

ولقد أضحى « جوده » على مر الأيام ، المصدر الأول — بعد أبى طبعا — لمتاعب أمى .. فلقد أضاعت ثلاثة أرباع عمرها فى الشكوى من « جوده » والصراخ على « جوده » والسب والضرب فى « جوده » .

ولم يكن « جوده » يسمى قط باسمه ، بل كان يكنى — على طول الخط — بـ « اللى ينعدم » و « اللى تنقصف رقبته » و « المتنيل على عينه » و « اللى ينشلك فى قلبه » .

أما هو فكان يضحك دائما .. كان إنسانا بحبوحا .. يضرب فيضحك ، ويسب فيضحك ، ويشتكى منه فيضحك ، وما من شىء كان يستطيع أن يجعله يكف عن الترتم بأغنيته المحبوبة : « على دول ياما ياما على دول » .

ولم يكن « جوده » يعرف شيئا عن المسئولية . ولا حاول قط أن يقدر عاقبة أو يخشى نتيجة ، بل كان يفعل كل ما يحلو له وكثيرا ما خرج ليقضى حاجة من البدال فى أول الشارع فيمضى به اليوم دون أن يحضر ، حتى يطلب منا أن نرسل

فى أخذه من الإسعاف أو من قسم السيدة .

ذهب مرة ليحضر صينية بطاطس من الفرن ، ومضت ساعتان دون أن يحضر ، وجلس والدى على المائدة يحرق الأرم غيظا ، وأخذت أمى تنتقل من نافذة إلى أخرى وهى تكاد تجن ، وأخيرا ظهر « جوده » فى الشارع وقد وضع الصينية على رأسه دون أن يمسكها بيديه ، وسار مادا ذراعيه إلى جنبيه وهو يوازن نفسه كأنه بهلوان يمشى على حبل ، وصرخت فيه والدتى أن يسرع ، ولكنه لم يزد على أن رفع عقيرته بالغناء « على دول ياما ياما على دول » .

ووضعت الصينية على المائدة ، ونظرت والدتى إليها ثم صاحت فى دهش وغضب :

— إيه ده يا واد ؟ الصينية دى مش بتاعتنا !

وابتسم « جوده » ، وهز رأسه هزة خبير وقال :

— أنا عارف .

— وجبتها ليه ؟

— دى أحسن من بتاعتكم .

ثم أخذ يوضح قوله للأعين الدهشة المصوبة إليه ، فقال بابتسامة راضية :

— دى بالفراخ ، بتاعتكم كانت باللحمة ، اللحمة العجالى .

وبدأ يشرح لنا كيف حاول الفران تأخيره .. ساردا الحوار الذى جرى بينهما :

— فين الصينية ؟

— استنى شويه ، بلاش فلقة دماغ .

— يا جدع هات الصينية ، سيدى مستعجل .

— ماتخوتناش ، يلعن أبوك لأبو سيدك .

ثم ينظر بطرف عينه ليرى وقع إهانة الفران على أبى ، فلما لم يجد لها تأثيرا يذكر ، عاد إلى تكرارها مسترسلا فى رواية المعركة :

ــ فلما قال لى يلعن أبوك لأبو سيدك ، رحت لا عن سنسفيل أجداد أبوه ، وصممت أنى أنتقم منه ، وفضلت مستنى لغاية ما ابتدى يطلع الصوانى وحطيت عينى على أجدع صينية وسهيته ورحت لاطشها .

وذهل « جوده » عندما أمرته أمي بإعادة الصينية ، وانهالت عليه بالشتائم ، ونظر إلى أبى مستنجدا ، ولكن أبى هز رأسه كأنه يقول « ما باليد حيلة » ، وخرج جوده عائدا إلى الفرن وهو يصيح : أصل مالكمش فى الطيب نصيب .

وكناوقتذاك ــ أنا وأخى ــ فى مدرسة محمد على الابتدائية ، وكان توصيلنا إلى المدرسة وإحضارنا منها أحد الواجبات الهامة الملقاة على عاتق « جوده » .

وكان المفروض فى « جوده » أن يأخذ باله منا ، وأن وجوده معنا مقصود منه الاطمئنان على سلامتنا ، ومنعنا من الشقاوة واللعب ، ووقايتنا من حوادث الطريق .. ولكنى أجزم بأننا لو تركنا وحدنا لكنا أكثر سلامة واطمئنانا ، ولسرنا فى الطريق أهدأ ألف مرة مما كنا نفعل . وكيف يمكن أن يجتمع الهدوء والسلامة مع « جوده » فى طريق أو فى دار ؟ وهو الذى كان فنانا فى الشقاوة .. عبقريا فى خلق الحوادث واصطياد المشاكل ؟

كنا نهبط من الدار فى السابعة صباحا وقبل أن نتجاوز الباب يخلع صاحبنا نعليه ، سواء كان شبشبا أم قبقابا .. ويخفيه وراء الباب ، فقد كان لا يحب شيئا أكثر من حرية الساقين ، وكان يدعى دائما أن النعل يعوق حركته ، وأنه ليس هناك أفضل من الحفاء ، فإذا تجاوزنا الباب وابتعدنا عن الدار ، رفع ذيل جلبابه ووضعه فى اللباس كما تعود أن يفعل ، ثم أخرج من جيبه كرة شراب ، ووضع أصبعيه فى فمه وأطلق صفارة طويلة .

وهكذا نبدأ الذهاب إلى المدرسة عدوا ، والكرة تنتقل بين أقدامنا ، عابرين سيدى الأربعين إلى درب المدبح إلى شارع السد ، هو فى منتصف الطريق قلب هجوم أو سنتر فرود كما كان يزعم ، وأنا جناح أيمن ، وأخى جناح أيسر . ولست أدرى ماذا كان يمكن أن تقول والدتنا لو رأتنا على حالنا تلك ، نقطع

شارع السد البرانى من سيدى الحبيبى حتى شارع سلامة ، نعدو بالكرة بين مختلف أنواع العربات ، و « جوده » يطلق الصفافير بفمه وأصابعه آمرا المارة أن يخلوا الطريق لتيم الكابتن « جوده » .

وأذكر أن الكرة أفلتت منا ذات مرة عندما ضرب « جوده » إحدى « الباصات » ، وكانت طويلة بعض الشيء ، وتجاوزت الجناح الأيمن لتستقر رأسا داخل قدرة فول مدمس ، فلم يكن من « جوده » إلا أن أمرنا بالزوغان ، وأخذنا نعدو وراءه حتى اختفينا فى أقرب حارة ، ونحن نرتجف خوفا من « عم منصور » بائع الفول والبليلة السخنة .

ولم يكن يمر بنا يوم دون أن نشتبك فى معركة ، فقد كان « جوده » — كما تقول أمه — يشاكل طوب الأرض . وكان مغامرا فدائيا لا يعتبر فارق القوة بينه وبين خصمه حائلا دون الاشتباك معه ، بل أغلب الظن أنه كان يرى نفسه أقوى وأفضل من أى إنسان ، وإنى لأذكر ذات مرة أن والدتى سألت أمه عما إذا كان يمكنها أن تحضر لعمتى خادما مثل جوده — تقصد مثله سنا — وسمع « جوده » قول أمى فهز رأسه وأجاب فى أسف واعتذار :

— زيى أنا ؟ مش ممكن ، وتلاقى منين زيى ؟

وكان جوده يتفنن فى وسائل التسلية التى نقطع بها الطريق إلى المدرسة ذهابا وإيابا ، وكان يوم الخميس من الأيام المشهودة لديه ، فقد كان يشحذ همته ويحشد قوته للاستيلاء على أكبر عدد من النوت التى كانت توزعها سينما أوليمبيا وإيديال على باب المدرسة ، وكان يخرج منها بنصيب الأسد ، فى النوت ، وفى الجروح والكدمات .

وكان يعتبر نفسه فى جنينة ناميش شخصية عامة يشترك فى كل موكب ويساهم فى كل حفل عام ، وكان أكثر ما يطربه أن يمتطى عربة الجوافة ويقود الجمع الغفير من الصبية معاونا البائع فى صياحه « عال يا جوافة .. بقرش الوقة » ، « اوزن بره .. بقرش الوقة » ، أو يقود المظاهرة وراء الجمل صائحا :

« من ده بكره .. بيقرشين » .

وفى عودتنا من المدرسة ، كان أهم مورد لتسليتنا هو الشيخ « كحكو » فقد كنا نبدأ فى زفه بمظاهرة يقودها « جوده » ويشترك فيها كل من هب ودب من صبية مدرسة محمد على ووادى النيل ، ومدرسة الكمال ، أى الجيل الجديد فى حى السيدة زينب .

كنا نلتقى بالشيخ « كحكو » خارجا من إحدى حوارى شارع سلامه ، فلا نكاد نبصره حتى يبدأ جوده بالهتاف : « شد العمة شد » فنجيب على هتافه : « تحت العمة قرد » .

وهكذا يسير الموكب وراء الشيخ « كحكو » مخترقا شارع السد البرانى وجوده يتفنن فى الهتافات والرجل ثائر هائج ، يقذفنا بأقبح الألفاظ ويدعو علينا بأفظع الدعوات ونحن ضاحكون منشدون : « شيخ كحكو يا شيخ كحكو » .

ولست أشك فى أن الشيخ « كحكو » لو استطاع أن يمسك بجوده لما تورع عن أن يطبق فى زمارة رقبته ويمزقه إربا ، فقد كان يعتبره عدوه الألد ، وخاصة بعد تلك الواقعة التى حدثت بينهما عند سيدى الحبيبى .

كان ذلك قبيل العصر وقد خرج « جوده » لشراء بعض الحاجيات من شارع السد ، ومضت بضع ساعات دون أن يعود ، وفى الساعة العاشرة مساء حضر شيخ الحارة ليطلب منا — كالمعتاد — أن نذهب لتسلمه من القسم .

وأحضر « جوده » من القسم ، وبعد العلقة والذى منه خلوت به أنا وأخى فى المطبخ ، وأخذنا نسأله عما حدث .

وضحك والدموع فى عينيه وأجاب متفاخرا :

— عصفورين بحجر .. عصفور حقيقى ، وعمة الشيخ « كحكو » .. خليتها تنزل ترف .. فاتكم نص عمركم !

وبدأ « جوده » يقص مغامرته قائلا :

— أما كان يوم ياولاد ، يعلم بيه ربنا ، أنتم عارفين انى أنا خارج من البيت على أني أشترى بتعريفه لمون من تحت الكوبرى ، والا من محمد البطل ؛ لكن أنا يا دوبك سبت باب البيت ولقيت الواد زينهم فى وشى .

— زينهم مين ، ابن الشيخ طرطور ؟

— لأ .. ابن زكية العمشه .

— وبعدين ؟

— ولا قبلين .. قال رايح فين ؛ قلت له رايح أشترى لمون .. قلت له وأنت ؟ قال رايح أصطاد .

— يصطاد ؟

— أيوه يصطاد .

— يصطاد إيه ؟

— متخليكو معايه ، مانا جيلكو أهو ، قلت له رايح تصطاد إيه يا وله يا زينهم ، قال لى عصافير يا خويه يا جوده ، عصافير ؟! معاك فخ ؟ قال : لأ نبله ؛ قلت له جاتك نيله ؛ أل يعنى الواد نشانجى أوى ، أفتكرت معاك فخ كنا نروح نصطاد فى عربخانة الرمالى ؛ دا هناك العصافير بتشغى زى النمل .

— فخ ؛ هو احنا بتوع فخوخ . دا شغل نسوان تحط الفخ وتقعد جنبه زى الولايا ؛ عارف النبله دى توقع لك أجدع نسر ، شوف .

وعنها وراح معمر النبله بحتة زلطة وراح ضاربها فى الهوا طلعت الزلطة تصفر زى الصاروخ ؛ فشر البندقية .

أقول لكم الحق ، عينى زاغت على النبلة ، وأنا أصلى نشانجى طول عمرى وأفهم فى النبل كويس ، لكن ما حبتش أطمع الواد زينهم فى وأخليه يتقنزح على ؛ رحت قايل له :

— دى نبله دى ، روح يا بنى بلاش معيله ، دى تصطاد بيها دبان مش نسور ؛ روح خلينى أشوف شغلى .

ـــ يعنى مالكش غرض تصطاد ويايه ؟

ـــ لأ . وحاتصطاد فين ؟

ـــ حاصطاد فى شارع السد ، انت عارف شجرة دقن الباشا اللى بعد سيدى الحبيبى اللى بتقعد تحتها أم سيده بتاعة الفول النابت والكرات والبصل الأخضر .

ـــ واشمعنى دى يعنى اللى نقيتها من بين الشجر .. ما قدامك شجرة سيدى الأربعين ؛ والا الشجرة اللى فى بيت المنفلوطى ؛ وألا بيت الزعبلاوى ؛ والا الماوردى ؛ والا الرمالى ؛ لازم تخبط المشوار لغاية هناك ؟

ـــ أصلها شجرة سقع ؛ بتشغى عصافير ؛ تقف تحتها تسمع الصوصوه واصله لرب السما .. ياالله معايا .

ـــ لا يا عم .. أنا رايح اشترى اللمون .

ـــ طب ما تشترى اللمون من عند أم سيده ؛ قل لستك انك مالقتش لمون تحت الكوبرى ولا عند أحمد البطل ؛ رحت تشترى من عند سيدى الحبيبى .

وقفت شويه أفكر ؛ قام زينهم قال لى :

ـــ وجب ؟

ـــ وجب ؛ بس انا اللى اصطاد الأول ؛ ورينى النبله .

مسكت النبله ؛ حطيت فيها الزلطة ورحت ضارب .

طلعت الزلطة .. تروح بعيد ؟! أبدا .. توقع عصافير ؟ أبدا .. تطلع فى الهوا ؟! أبدا .. الزلطة بنت الدايخه تسيب كل الدنيا الواسعة وتندب فى الفانوس الصغير المعلق على بيت المعيرجى نزلته فتافيت .

الفانوس سقط ، وقلبى سقط ، وروحى ساخت وانتو عارفين المعيرجى راجل مجنون وعارفين الشومه بتاعته ، رحت حاطط ديلى فى اسنانى أنا وزينهم وقلت يافكيك .

فضلنا نجرى لغاية ما وصلنا بوابة الرمالى ودخلنا جوا الوابور وبعدين وقفنا ناخد نفسنا ؛ وبصيت لزينهم وقلت له :

ـــ شايف النشان يا وله ؟

ـــ نشان ! طب تعالى نقف قدام الفانوس سنة وجرب تصيبه ؟! أل نشان أل ؛ علىّ أنا يا جوده .

وطلعنا من وابور الرمالى على شارع السد ؛ ورحنا على شجرة دقن الباشا ، ووقفنا ، وابتدأ زينهم يضرب .

طلعت أول زلطة ، ولا نزلتش لا هى ولا العصفوره .

زينهم هز رأسه وقال دى تجربه .

طلعت الثانية ولا نزلتش العصفوره ؛ لكن نزلت هى على دماغ « أم سيده » ؛ وانتو عارفين « أم سيده » ؛ وليه غجرية ؛ مسكت الزلطة وبصت فوق الشجرة مالقيتش حد .. بصت حواليها لقيت زينهم ماسك النبله ، راحت هبه فيه : والنبى واللى نبا النبى ! لو مسكتك ما تمسكك عافيه ، امشى بقولك من هنا منك له ؛ لحسن العفاريت بتنط من عنيه .

ـــ معلهش يا أم سيده ، أول جوز عصافير ليكى .

ـــ مانيش عايزه عصافير ، اللى يفرقه العويل يسفه .

المقصود ما طولش عليكم ، فضل زينهم يضرب من غير فايده ، رحت واخد منه النبله ، وابتديت الضرب ، تطلع الزلطه ورا الزلطه والعصافير ما عندهاش دم ، ما فيش واحده تنزل توحد الله .

الحقيقة انكسفت ، وعمرت النبله وقلت فى نفسى آهى آخر زلطه ، وقريت عليها الفاتحة ، ورفعت إيدى بالنبله عشان أضرب ، فى الوقت ده لقيت قدامى ، مين تفتكروا ؟ خمنوا كده ؟! لقيت عمة الشيخ كحكو .. لأ .. لأ مش على الشجرة ، على دماغ الشيخ كحكو ، وهو جاى يتبختر من عند سيدى الحبيبى .

قلت فرجت ، ووطيت إيدى بالنبله ، ورحت ضارب وقلت : يعنى لا عصافير ولا عمم ؟. وعنها وتنزل عمة الشيخ كحكو ترف بعدما لفت معاها

دماغ الشيخ كحكو سبع لفات .

وينظر جوده الينا ويتساءل :

ــ بالذمة مش تستاهل أروح فيها القسم ؟

ــ أى والله تستاهل .

ومرت الحادثة كغيرها ؛ وحلت الإجازة الصيفية ؛ وبدأت والدتى تقاسى منا فى خلالها الأمرين ، وتستجير بالله منا ومن أفعالنا وتدعو على وزارة المعارف لأنها لم تجعل العام الدراسى ممتدا على طول السنة .

وفى ذات يوم كنا نقف أمام البيت ، وقد بدأنا الاستعداد للعب الكرة ، وانتهى جوده من عمل كرة ضخمة حشاها بكل خرق البيت ، وأمرنا أن نخلع أحذيتنا حتى تتساوى ولا يستطيع أحد منا أن « يكسر » الآخر .

وخلعنا أحذيتنا ووضعناها وراء الباب عندما سمعنا صوت ضجيج يأتى من بعيد ، ثم لاح لنا شبح مظاهرة قادمة من شارع الخليج ، وكانت تلك الفترة مليئة بالمظاهرات التى كان الوفد ينظمها ضد وزارة صدقى باشا .

واقتربت منا المظاهرة ، خليط من أهل الماوردى والمدبح بجلاليبهم وطواقيهم ، وقد أمسكوا بأيديهم العصى والشوم وأخذوا يهتفون فى نغمة راقصة ملحنة : «يحيا الوفد ، ويحيا الوفد » .

وانتشى جوده وتملكه من الهتاف الوفدى الملحن الراقص طرب شديد ، فقذف بالكرة وراء الباب ، وصاح بنا فى عجلة :

ــ ياللا بينا .

وظلت المظاهرة تسير من شارع إلى شارع ، مخترقة وابور الرمالى إلى البغالة مارة بجميع الشوارع والأحياء ، وهى تتكتل وتتضخم .

وسرقنا الوقت ونحن مندمجون فى المظاهرة الصاخبة الهادرة وظللنا نجول معها دون أن نشعر .

ولتتصوروا حال والدتى وقتذاك : لقد كادت تجن ؛ وهى تقف فى الشرفة

باكية ؛ وقد ذهب أبى ليبلغ الأقسام عن غيابنا ويبحث عنا فى القصر العينى .

وأقسمت والدتى ليلتئذ أنها لن تبقى فى البيت لحظة واحدة إلا إذا أدخلنا أبى المدرسة ؛ أى مدرسة .

وهكذا استقر الرأى على أن نقضى بقية إجازتنا فى أحد الكتاتيب رغم أننا كنا فى الرابعة الابتدائية ؛ فقد كان المطلوب هو مجرد سجن يبعدنا عن الدار .

وفى ذات صباح تحرك الركب متجها إلى الكتاب الذى اتفق أبى مع صاحبه على إيوائنا وقد ضم ثلاثتنا : أنا وأخى وجوده ؛ وكان جوده يرتدى طربوشا وصندلا وجلبابا جديدا ؛ ولم يكن هذه المرة مجرد موصلاتى ؛ فقد عقدت أمى النية على أن يبقى معنا طالبا فى الكتاب لحراستنا ثم يعود معنا فى نهاية اليوم .

وكان « جوده » فى حالة سعادة تامة ؛ وهو يرتدى طربوشه وصندله ؛ إذ كان يشعر أنه مقدم على مغامرة جديدة ؛ فقد كانت هذه هى المرة الأولى التى يذهب فيها إلى كتاب .

ووصلنا إلى الكتاب ودلفنا إلى داخله ، واتجهنا إلى حجرة على اليمين كتب عليها « الناظر » .

ودخلنا إلى « الناظر » لنعلنه بنبأ قدومنا ؛ ودفعنا بابه باستخفاف ، فقد كنا نحس أننا أرفع كثيرا من الكتاب ومن الناظر ؛ وأن مجرد وجودنا عنده يعتبر تشريفا له تماما كما ينتسب العلماء إلى إحدى الجامعات .. وتوقعنا أن يهلل الناظر لقدومنا ويكبر .

ووقع بصرنا على الناظر ؛ فدهشنا وبهتنا ؛ ووقع بصر الناظر علينا .. فدهش وبهت .

لقد كان الناظر هو بعينه الشيخ « كحكو » ، لقد هلل لنا وكبر ، ولكن كان تهليلا فى غير مصلحتنا ، وكان أول ما فعل أن نادى الفراش وصاح به مشيرا إلى « جوده » : هات الواد ابن الكلب ده حط رجليه فى الفلقة » .

ووضعت قدما جوده فى الفلقة وهو يصرخ ويستغيث ، والشيخ يصيح ، « شد الفلقة شد » ؛ لقد كان الكتاب حقا بالنسبة لجوده مغامرة كبرى .

فى سيدى زينهم

وخرجت « أم عبده » من باب الدار عابرة سيدى زينهم إلى شارع سكة البغالة ، ثم اتجهت يمينا إلى ميدان زين العابدين .. وسارت بجوار حوض شرب الحمير الكائن فى الميدان وهى تتلقى السلام ممن استيقظ من أهل الحى .

بى حيرة من أين أبدأ الجولة .. وبمن أفتتحها ؟. بأم عبده .. أم بعبده ؟. ولكننى أظن من الخير قبل أن أبدأ بأيهما أن أنبه القارئ ألا يخدعه تشابه الأسماء .. فيظن أن أم عبده هى « أم » عبده حقا .. وأن عبده هو ابن لها .. إذ لا صلة هناك بين الاثنين ولا قرابة . فأم عبده قد أفنت أزواجها الأربعة .. وأولادها العشرة الواحد إثر الآخر .. فما بقى منهم واحد على قيد الحياة . بما فيهم عبده ، الذى نعتت باسمه ، والذى قد مات مضروبا ببلطة فى إحدى ليالى الزفاف .

أما السيد عبده .. أو عبد السميع أفندى .. أو عم عبد السميع .. كما يسميه أصدقاؤه وإخوانه .. أو « المنيل على عينه الشحات ابن الشحات » كما كانت تصر أم عبده على تسميته .

أقول أما عبده هذا فقد كان بلا أم .. أعنى بلا أم على قيد الحياة .. فقد نشأ يتيم الأم والأب .. وخاض معركة الحياة وحيدا ، وسار فيها فريدا .. وأفنى صباه وشبابه وجزءا من كهولته .. وهو وحده لا شريك له .

لنبدأ بعبده .. فنبحث عنه .. ولنصعد الدرج حتى نصل إلى حجرته الكائنة بسطح الدار التى تملكها أم عبده فى سيدى زينهم .

الوقت قبيل الفجر لا يقطعه إلا صياح الديكة التى تقطن التقفيصة الملاصقة لحجرته والتى تشاركه مع بعض البط والأوز سكنى سطح الدار .. وظلمة الليل ما زالت فلولها تقاوم هجوم النهار .. والنجوم قد أضناها السهر ، ونحاول أن نبحث عن عبد السميع أفندى فى حجرته فنبوء بالفشل الذريع .. فقد ملأت الحجرة ظلمة حالكة .. لا شمعة ولا مصباح ولا بارقة ضوء .. حتى النافذة الخشبية الوحيدة التى يمكن أن ينفذ منها إلى الحجرة بعض أضواء النجوم قد أحكم إغلاقها .

ويتعود البصر الظلمة شيئا فشيئا فيستطيع أن يميز فى ركن الحجرة الشىء الوحيد بها الذى يمكن أن يكون فراشا وهو لا يعدو كنبة خشبية عارية .. ومع ذلك فإننا نجده قد خلا من راقده .. ولا نجد لعبده عليه أثرا .

أين عبده ؟ .. إننا نسمع رجع أنفاسه وزفراته .. ومع ذلك لا نرى له وجوذا .

وتخف الظلمة بعض الشىء ، ونستطيع أن نميز بقية محتويات الغرفة : قلة فارغة وضعت بجوار الكنبة ومنضدة خشبية عليها بعض فتات خبز جاف .. ونوى زيتون .. وبقايا بصلة ، ومصباح غاز مطفأ . وكتاب ذو ورق أصفر باهت .

وعلى أحد الجدران دق مشجب علقت عليه جاكتة ، وبنطلون ، ومنديل محلاوى ، وطربوش متداعى الجوانب .

ولكن .. أين عبده ؟

لقد أطل برأسه من تحت الكنبة .. وعيناه نصف مغمضتين وقد أخذ يفركهما فركا شديدا بيديه .. حتى تم فتحهما وبدأ يسحب جسده بهدوء وتأن من تحت الكنبة .

وأخيرا ظهر عبده .. بجلبابه المخطط وجسده الهيكلى النحيل الطويل ، وعينيه الغائرتين ، وذقنه الذى تناثرت فيه الشعيرات فلا هو ملتح ولا هو حليق ، وأنفه

الضخم ، وطاقيته التى حشر فيها رأسه ، والتى أهدتها إليه أم عبده عندما كانت علاقته بها على ما يرام .

وسار عبده على أطراف أصابعه متحسسا طريقه فى الظلمة التى لم تنقشع بعد .. حتى وصل إلى المشجب ومد يده فأمسك بالبنطلون ، ودفع فيه ساقيه دون أن يخلع الجلباب بل حشره فيه حشرا فبدا البنطلون منبعجا. لقد كان الجلباب لا يفارق جسده قط فهو جلباب بالليل ، قميص بالنهار .

وأرتدى عبده الجاكتة ولف المنديل المحلاوى حول عنقه ، وأتم هندامه بالطربوش ، ثم حرك إحدى قدميه يمنة ويسرة يبحث بها عن الحذاء حتى عثر عليه فدس فيه قدميه الواحدة بعد الأخرى دون أن ينحنى أو يمسك بالحذاء .

وكان حذاء عبده أحب شيء إليه فى هذه الحياة ، فقد كان يشعر له بامتنان دائم وفخر مستمر .. إذ كان حذاء جيدا أصيلا « ابن ناس » وهو لا يزال يذكر تلك الفرصة التى أتاحت له أن يأخذه خطأ بدلا من حذائه البالى فى إحدى صلوات الجمعة ويذكر بعد ذلك كيف بلى نعله فأخذه للأوسطى مخيمر العتقى « وأتحفه » بنعل كاوتش أوتومبيل ، نعل دنلوب سميك لا يبلى .

وانتهى عبده من ارتداء ملابسه ، أو على الأصح من نقلها من المشجب وتعليقها على جسده ، ثم تلفت حوله وتحسس جيوبه وانحنى مادا يده تحت الكنبة فأخرج نصف سيجارة دسه فى جيبه وخرج من الحجرة .

سيظن كل قارئ أنه خرج من باب الحجرة .. إذ ما الذى يحدو برجل مثله أن يخرج من حجرته من غير الباب ، وإذا لم يخرج من الباب فمن أين إذا خرج ؟.

لقد فتح الرجل النافذة ، وكان الضوء قد بدأ ينسج خيوطا رقيقة ونظر أسفل النافذة يمنة ويسرة وكأنه اطمأن إلى أنه لا يوجد هناك من يرقبه ، ثم دفع بساقيه من النافذة واعتلى حافتها ومد ذراعيه وتعلق بإحدى المواسير الملاصقة للنافذة.ثم سحب بقية جسده من داخل الغرفة ، وبدأ يهبط على الماسورة إلى الأرض .

فعل الرجل كل هذا بمنتهى البساطة .. كمن يأتى عملا اعتاده كل يوم ،

والواقع أنه قد اعتاده فعلا ، فقد مضى عليه أسبوع ، وهو لا يدخل غرفته ولا يبرحها إلا بهذه الطريقة .

ترى ما الذى اضطر عبده إلى كل ذلك ؟ ما الذى يجبر المسكين على عدم التمتع بالرقود فوق الكنبة ! وما الذى يغريه بأن يحشر جسده تحتها ويظل كذلك طول الليل ، ثم ما الذى يدعوه لأن يستيقظ مع الديكة فيتسلل فى الظلمة ويهبط من النافذة من ثالث دور ؟!!

ما الذى يدعو إلى كل هذا ؟.

أم عبده هى السبب ، أم عبده ، والفقر ، ولا أحد غيرهما ، فإنها لو رأته لانهالت عليه ضربا ، وأرته على حد قولها « نجوم الضهر » فقد مضت عليه أربعة أشهر لا يدفع إيجار الحجرة ، وقد وجد نفسه مخيرا بين أحد ثلاث : إما أن ينام على قارعة الطريق فيموت من البرد ، وإما أن يصعد إلى غرفته فيموت من الضرب ، وإما أن يتسلق المواسير ويتسلل إلى الغرفة ، ثم يختبىء تحت « الكنبة » وفى هذه الحال قد يموت وقد لا يموت ، فوجد أن الأمر الأخير أسلم عاقبة وأن احتمال النجاة فيه أكثر ، وخاصة بعد أن جربه فوجده أسهل مما يتصور .

ولكن أين أم عبده ؟ ومن تكون ؟ وكيف هى ؟

أم عبده يا سيدى القارىء وقاك الله الشر ، وجنبك الأذى ، هى الشر وهى الأذى ، أو كما قال ـــ أعنى عبده ـــ « غولة فى صورة آدمية » .

هل لديك الشجاعة الكافية لأن تبحث عنها معى ؟ أو أن تسمع عنها منى .. تشجع يا سيدى وتجلد واصبر وانتظر ؛ ها هى أم عبده ، تستيقظ هى الأخرى ، هل رأيتها ؟

تقول لا ليست أم عبده ؟ بل هى والله العظيم .

تقول إنها ليست آدمية أصلا ؟ حقا ، وهذا ما جعلنى أجزم بأنها أم عبده .

لو تخيلنا أن خليطا من الحيوانات الآتية : الفيل ، السيد قشطة ، البومة ، الحمار الوحشى ، الغوريللا ، الدب الأسود (لا الأبيض) قد تجمعت كلها

واتفقت على أن تنتج من اللبؤة وليدا يجمع كل صفاتها جميعا ويأخذ من كل واحد منها أهم مظاهره ، لما كان ذلك الوليد شيئا يختلف عن أم عبده .

استيقظت المرأة ، ولنسمها امرأة من باب التجاوز ، وجلست فى فراشها برهة تستريح من عناء النوم ، فلو كان الأمر بيدها لظلت مستيقظة ليل نهار ، ثم هبت من فراشها فقرقع الفراش من ثقلها وتوجع ، وعلا منه صرير لو ترجم إلى العربية لكان « اللهم هب لنا من لدنك رحمة ، اللهم لا تحملنا ما لا طاقة لنا به » .

هبت أم عبده ، فكأنها زوبعة هبت ، أو عاصفة ثارت ، ضجيج وعجيج ، صياح وصراخ أيقظ أهل الدار ، وأطلت برأسها من الباب تلقى بإنذارها اليومى إلى السكان وتحذرهم من أن يحاولوا مسح السلالم حتى لا تبوش ، وتنذرهم بأنها لو رأت قطرة ماء تصب عليها ، فستجعله يوما أسود « هى السلالم حاتستحمل إيه والا إيه ، كفاية رجليكم اللى طول النهار تدب عليها ، هو انتوا بتهمدوا » .

وانتهت أم عبده من إنذارها الأول ، وأحست بشىء من الطمأنينة فقد كان أكثر ما يقض مضجعها . هو خشيتها من أن تذيب مياه المسح حجر السلالم .

واختفت بعد ذلك برهة . ثم سمع وقع قدميها تهبط السلم وتقرقعه بمركوبها الأصفر قرعات منتظمة وتدندن بأغنية يستطيع المرء لو أرهف السمع ، أن يميز فيها « بينى وبينك كلام ، ويش وصلوا لامك يا عبده » .

ثم صمتت فجأة فقد تذكرت عبده . وصكت على أسنانها وحدثت نفسها فى تهديد ووعيد :

« آه يا شحات الكلب ، بس لو تقع عليك عينى لأفرج اللى ما يتفرج » .

وصمتت لحظة .. ثم عادت تحدث نفسها مرة أخرى ، موجهة القول إلى عبده « أنا أم عبده المسيّطة !! على سن ورمح !! ينصب على جربوع زيك .. يا ضلالى يا ابن الضلالى .. » .

وخرجت « أم عبده » من باب الدار عابرة سيدى زينهم إلى شارع سكة

البغالة . ثم اتجهت يمينا إلى ميدان زين العابدين .

وسارت بجوار حوض شرب الحمير الكائن فى الميدان وهى تتلقى السلام ممن استيقظ من أهل الحى .. عطية . بائع البليلة ولقمة القاضى ، وحبيشة يدفع عربته الصغيرة التى قد وضع فيها قدرة الفول .. وكانت تحياتهم لها تحيات خشية ورهبة فقد كانوا يخافون . بذاءة لسانها وجبروتها .

وأخيرا وصلت « أم عبده » إلى مقر عملها .. وجلست أمام متجرها .

كان متجرها هذا عبارة عن طبلية كائنة على باب المدبح .. وكانت بضاعتها هى عفش الذبائح.. الرؤوس والكوارع والطحال والحلويات والكرش والنفوس وكل ما تبقى من جسد الذبيحة بعد أن يأخذها الجزار .

ولقد قال عنها عبده من باب التشنيع إنها تدس فى بضاعتها أحشاء وكرشا آدمية .. من ضحاياها .. فهى « قتالة قتلة » .. ولقد بلغها قوله فنظرت إلى السماء داعية « عقبال ما بيع كرشته وطحاله .. قادر يا كريم تسمعها منى دعوة وليه » .

تربعت أم عبده أمام الطبلية .. بعد أن خلعت طرحتها السوداء ، وارتدت فوق جلبابها هدوم الشغل ، وارتفع صوتها منادية على بضاعتها وهى تذب بمذبة تصلح لأن تكون هى نفسها عشا للذباب ، وأخذت تترنم قائلة « هنا الحلويات ولا يبيع الحلو .. إلا الحلو » .

وتلفتت أم عبده حولها فوجدت المعلم « أباوة » زميلها فى المهنة . وقد أخذ يرص بضاعته فزمجرت بالتحية صائحة :

ــ صباح الخير يا معلم أباوه .

ــ صباح الخير يا معلمه .. ازاى الحال ؟

ــ رضا ، أهى ماشية ، يوم عسل ويوم بصل .

ــ انشا الله عسل دايما يا معلمه .

ــ ومنين يا خويا حنجيبه العسل ده .

ــ منين ؟!! وانت أم العسل .. والقشطه والزبده .. ميت حلاوة على عيونك .

ثم أخذ الرجل يصفق بيديه طربا وأردف صائحا :

ــ ارزقها بقى يا رب .. ميت ألف جنيه يا رب .. مش عايزهم ناقصين مليم واحد ، وإلا ايه يا أم عبده .

ــ ياخى اتوكس ، قول نص ريال ، قول بريزه ، ميت ألف جنيه تعمل بيهم إيه ؟. والنبى تتوحل فيهم ما تعرف تعدهم ولا تضيعهم .

ــ ازاى بقى .

ــ طب قوللى تجيب إيه بسلامتك كده .

ــ احسبى عندك .

ــ هيه .

ــ أحشش بألف .

ــ يبقى فاضل تسعة وتسعين .

ــ واسكر بألف ، واكل نيفه بألف .

ــ يبقى فاضل سبعة وتسعين .

ــ وابرم بألف .

ــ سته وتسعين .

ــ لأ ، حابرم بألفين ، والا بتلات الاف ، أصل انا احب البرم .

ــ باربع تلاف ، بخمس تلاف ، يبقى اثنين وتسعين ، وخدلك ألف شبرقة يبقى فاضل واحد وتسعين ، تعمل بيهم إيه يا روح امك .

ــ وافرق بألف عيش وفول للسيدة عشان اروح الجنة .

ــ عيش وفول ؟ دانت تفرق عيش وكباب ، زى بعضه ، خليك على عقلك ، ، ألف تدخل بيهم الجنة ، عندك حاجة تانيه غير كده ، أديك حششت وسكرت وبرمت واشبرقت ورحت الجنة بعشرة الاف .

— كفايه كده .

ثم رفع يده إلى السماء صائحا :

— كفايه يا رب عشرة الاف . بس ابعت .

ثم انطلق يقهقه هو وأم عبده ، وبعد برهة قالت أم عبده وهى تهش بالمنشة :

— يا خويه الناس بطلت تاكل كوارع والا إيه .

— كلهم سم لما يهرى مصارينهم ، هم دول ناس ، دول فقر دكر ، دانا كنت زمان اسرح بالثلاثين جوز ماكانوش يستحملوا منى صباحية ؛ كنت يدوبك اطلع من المدبح على بركة قارون وعلى بال مالف شويه فى زينهم والبغالة أكون جبرت ، زى دلوقت الواحد كأنه بينادى على قتيل .

— والله يا معلم أباوه ، الدنيا ما بقت زى زمان ، حتى السكان بقم ملاوعين ونصابين وولاد كلب ؛ وهو لولا انى أنا حمشه معاهم وموارياهم العين الحمره كنت طلت مليم ؟

ثم أطلقت زفرة حارة وأردفت :

— مفيش مغلبنى فيهم غير الشحات ابن الشحات : آه يا نارى لو اعتر فيه ، لاخلى جتته حتت ، زى اللى قدامى عالطبليه .

— هو مين ده ؟

— المنيل على عينه اللى ما يتسماش ، عبده ، يعنى حايكون مين غيره .

— هو لسه برضه ماداكيش الأجرة ؟

— هو انا باشوفه ؛ دا زى فص ملح وداب أدور عليه فى سلقط فى ملقط مالوش أثر .

— يمكن مات ؟

— ما بيمتش يا خويه أبدا . أنا برضه قلت زيك كده لكن اللى حيرنى انى باطلع اشقر على الأوده ألاقى فيها فتافيت أكل ، وزى ما يكون الراجل بايت فيها . لكن بس بيخش منين . دانا قاطعه عليه السكة .

ــ أقول لك أحسن طريقه ؟

ــ إيه ؟

ــ سكي الأوده بالمفتاح ، سنكريها كويس .

ــ سكيتها ، وسنكرتها ، وعملت اللي ما يتعمل .

ــ وبعدين ؟

ــ برضه باطلع الاقى الفتافيت والبصل .

ــ عجيبه !. يعنى بيخش منين ؟

ــ علمى علمك يا معلم أباوه .

ــ يمكن من اخواننا الشياطين .

ــ شياطين ؟ ده شكل شياطين ؟ ده منيل على عينه وخايب .

ــ طيب وإيه يعنى وهو مافيش فى العفاريت خايبين .

ــ لازم فيه .

ــ أهو ده تلاقيه منهم .

ــ ياخويا بس بقى ماتلبشى جتتى . أنا مش ناقصه ، اخفيها سيره بقى . جاتو نيله مطرح ما راح .

ولنترك أم عبده الآن منهمكة فى بضاعتها ما بين رؤوس وكوارع ، وفى حديثها مع المعلم أباوه ، ولننطلق فى أثر عبده لنرى ماذا فعل الله به .

سار عبده وقد وضع يديه فى جيبى بنطلونه ، ومر ببائع لقمة القاضى فغير ريقه بلقمتين على الحساب ، ثم انطلق فى طريقه ،

كان عبده يحس فى يومه هذا بشيء من الأمل يساور نفسه ، فهو مقبل على حياة جديدة ويشعر أن بؤسه وفاقته سيفارقانه وشيكا ؛ لقد بدأ الحظ يتبسم له أخيرا بعد طول عبوس ، وبدأت الدنيا تقبل عليه بعد أن طال إدبارها عنه .

وداخله الانتعاش وهزه الطرب ، وأخذ يفكر فى مشروع الزواج الذى يوشك أن يقدم عليه ، هذا المشروع الذى يضع نهاية لشقائه ووحدته .

إنها صفقة ولاشك رابحة ، فمهما تكن المرأة ، ومهما بلغ بها القبح فهى برضه امرأة ، تملأ أحضانه وتقضى حاجته ، وتهيئ له فى نومه الدفء والراحة ، وفى يقظته الطعام والملبس .

ثم أهم من ذلك كله ستنقذه من الخطر الداهم والكارثة الكبرى : أم عبده .

وبدأ يتخيل نفسه بعد أن حصل من زوجته المستقبلة على الإيجار المتأخر ، ووضعه فى جيبه . ثم ذهب منتفخ الأوداج مرفوع الرأس ، وقذف به إلى المرأة المجرمة ، ثم خلع حذاءه ، وأهوى بنعله الدنلوب الثقيل على رأسها ، وبصق فى وجهها الخنزيرى بصقتين أو ثلاثا ، وأخرج لها لسانه ، ثم انطلق هاربا بعد أن فش غليله .

وأحس بالكثير من الراحة . وكان قد وصل إلى قهوة « الوردة البيضاء » فجلس على مقعد خارجها . وطلب جوزه ، على الحساب أيضا ، وظل يشد منها الأنفاس ، حتى بدأت الشوارع تعج بالحركة .

كان على عبده بعد ذلك أن يبدأ عملية التأهب للقاء عروسه الجديدة .. فقد اتفقت معه أم زكية (التى كانت الواسطة فى هذا الزواج) على أن الست ستحضر لزيارتها قبيل العصر ، وأن عليه أن يطب عليهما فى هذا الوقت كأنه قد أتى صدفة ؛ وبذا يتم اللقاء وتتم الصفقة .

وبدأ عبده عملية تهيئة نفسه للقاء بمسح الحذاء الطيب الأصل ، وكانت عملية مسح الحذاء عملية عويصة ، وكان أصعب ما فيها أن ماسح الأحذية لم يستطع أن يحدد بالضبط لون الحذاء !!

وعندما انتهى من عمليته انحنى عبده وهمس فى أذنه « معاك شلن سلف ؟ » وكان الماسح معرفة قديمة مع عبده فمد يده فى جيبه وأعطاه الشلن .

وذهب عبده بعد ذلك إلى الحلاق ؛ ثم إلى الطرابيشى وتبقى معه بعد ذلك نصف فرنك ؛ ابتاع به كرافته من بائع حمل على ذراعه مئات الكرافتات ؛ ثم وقف أمام إحدى واجهات المحلات وربط بها ياقة الجلباب .

وأخيرا حان الموعد وذهب عبده يتبختر ويدعو الله أن تكون العروس على شيء ولو قليل من الملاحة والسمنة .

ووقف عبده أمام باب « أم ذكية » يشد الجاكتة ، ويصلح الكرافتة ، ويثبت الطربوش على رأسه ، ثم قرأ الفاتحة ، وطرق الباب :

— أهلا وسهلا ، أهلا .

وسحبته « أم ذكية » من يده ودخلت به إلى العروس .

ونظر عبده إلى العروس ثم وقع مغشيا عليه .

لقد كانت العروس : أم عبده !!

فى الماوردى

ولأول مرة فى تاريخ كوبرى المنيرة وعشش الماوردى ، يفتقد الناس « فاطمة شيخون » وابنها « الششتاوى » . فقد أقبل الزبائن فى مطلع الفجر ليبتاعوا مرتبهم اليومى من المشبك ، فإذا بالمكان يخلو منهما . وهزوا رؤوسهم تساؤلاً ودهشا وأسفا . وخشوا أن يكون قد ألم بالمرأة والولد مكروه .

لم يكن « ششتاوى » لقبه .. أعنى أن اسمه لم يكن محمد ششتاوى أو إبراهيم ششتاوى .. بل كان اسمه ششتاوى فقط . أو قد يكون ششتاوى على ، أو محمد ، أو أى شىء آخر تآكل على مر الزمن ، وامحى مع الأيام فلم يبق منه سوى ششتاوى .

وقد يستغرب هذا الاسم ويتساءل سامعه : من أى شىء اشتق وإلى أى جهة ينسب ؟ ولكن أمه ــ وهى المسئولة الأولى عن هذا الاسم ــ تقول إنها سمته ششتاوى نسبة إلى الشتاء .. لأنه ولد فى طوبة ، والسماء « تشتى » والجو عاصف مكفهر .

وهكذا يتضح لنا أن الششتاوى عكس الصيفى ، ولسنا ندرى هل عنت أمه بهذه التسمية شيئا .. أم أنه مجرد لفظ ألقته على عواهنه . ؟ على أى حال لا أظن الاسم ــ على غرابته ــ يستدعى منا كل هذا البحث ، والفحص ، بل خير لنا أن نتعوده كما تعوده صاحبه ، وكما تعوده من حوله ، فأضحوا ينادونه به بلا أقل تفكير

فإذا تجاوزنا الاسم إلى صاحبه وتبعناه لنرقبه فى أول مرحلة من مراحل حياته ، وجدناه قد ربط من وسطه بحبل شد إلى أحد القوائم الحديدية لكوبرى المنيرة القائم على سكة حديد حلوان والموصل بين حى المنيرة من ناحية والماوردى وجنينةناميش من الناحية الأخرى .

ويبدو لنا الششتاوى فى وضعه هذا أشبه بكلب حائر أرهقه القيد . فهو يطوف حول العمود على قوائمه الأربع مبتعدا عنه بأقصى ما يسمح له الحبل ، وعلى مقربة منه تربعت صاحبته أو أمه « فاطمة شيخون » ، وقد وضعت أمامها متجرها المكون من صينية تحوى البضاعة الملائمة ، والتى تتطور حسب ما تقتضيه الظروف . فتارة نراها مليئة بالمشبك ، وأخرى بالشطيطة ، وثالثة بالكشرى أبو جبة ، ورابعة بالكسكسى .

والششتاوى وأمه يكونان زوجا لا ثالث لهما . فقد توفيت — الفردة الثالثة — أبو ششتاوى وهو فى بطن أمه — أعنى الولد .. لا الأب — وكان ذلك فى معركة حامية فى المذبح استعملت فيها السكاكين ، والكزالك ، والسواطير وكل ما فى المذبح من أسلحة للقتال ، وانتهت المعركة بقتل أربعة كان صاحبنا أحدهم .

ورغم أن « فاطمة شيخون » كانت تدعو على زوجها فى كل عراك بينها وبينه بأن يموت قتيلا .. فقد ساءها كثيرا أن يستجيب الله دعاءها عليه فى هذه المسألة بالذات .. ويحقق — على أتم وجه — هذه الدعوة دون غيرها من الدعوات .

وحزنت المرأة بالطبع على زوجها حزنا بالغا ، وكان إحساسها بالفجيعة يزداد كلما قاربت الوضع . فقد أوجع نفسها أن ينزل الضيف الجديد مهيض الجناح مكسور الخاطر ، وألا يبصر أباه القوى الشكيمة المرهوب الجانب ذا الحول والطول بين جزارى المذبح .

ونزل الششتاوى ذات ليلة . فلم يجد من يستقبله سوى الأم الطريحة ، وجارة أرقها الصياح فتطوعت للمساعدة .

ومرت الأيام فإذا بالضيف الجديد قد ملأ عليها الحجرة الموحشة وأضاء لها الظلمة وبدد اليأس ، وإذا به يشد أزرها ويعينها — بمجرد وجوده — على احتمال الحياة ، بل لقد حبب إليها الحياة .. وأبداها لها أمرا ضروريا .. من أجله هو .

لقد وجدت فى ذلك الكائن الضئيل القدر شيئا كثيرا أكثر من مجرد عزاء وتسلية ، وجدت فيه غرضا وغاية .. بعد أن كانت تحس أنها تحيا بلا غرض وتسير إلى غير غاية .

ولم يكن الشسنتاوى — والشهادة لله — جميلا بحال من الأحوال ، ومع ذلك فما انطبق المثل القائل بأن « القرد فى عين أمه غزال » كما انطبق على صاحبنا وأمه .

لقد كانت تبصر فيه — وهو العجينة اللينة من اللحم — صورة طبق الأصل من أبيه ، وتتوهم أنه لو أمسك بشومة أو ساطور لاستطاع أن يسوى الهوايل .

وكان بينه وبينها ، وهو لا يعدو الأسبوعين عمرا ، أحاديث لا تنتهى ، تتحدث إليه وتجيب على نفسها نيابة عنه ، وتمضى الساعات الطوال وهى لا تكل ولا تمل كأنها تحدث أعذب الناس سمرا وأمتعهم حديثا .

وبدأت المرأة كفاحها من أجل الطفل ، فقد صممت على ألا يكون يتيما ، وعلى أن تعوضه بجهادها عن أبيه الراحل ، وخرجت إلى حياة الكفاح بأول صينية مشبك متخذة مقرها أسفل الكوبرى فى ملقف مارة ، وموضع سقع ، ومكان لا يبعد كثيرا عن مسكنها فى عشش الماوردى .

ولم يكن شسنتاوى فى أول أمره بالشىء الذى يعمل حسابه ، أو الذى يعرقل سير تجارتها ، فقد كانت ترقده على حجرها ، ملفوفا فى هلاهيله .. مستغرقا فى نومه ، فإذا ما أيقظه جوع أو ألم به ضيق .. ألقمته ثديها .. فانطبق عليه المثل « أطعم الفم تستحى العين » ولا تمضى دقائق حتى تستحى عينه ، ويستغرق فى نومه .

ولكنه — مذ بدأ يحبو على أربع — قد أضحى شيئا خطيرا .. مقلقا مزعجا ،

ولم يعد قط يقنع بالنومة .. أو بالثدى .. بل بدا مناكفا مشاكسا .. جوابا جوالا . تماما كأبيه .. متواثبا لا يستقر له قرار فى ممر » .

لقد بدا الشِشتاوى .. من يومه .. مغامرا كأبيه . وكان أكثر ما تخشاه الأم أن يندفع كأبيه فى إحدى المرات فيورد نفسه موارد العطب .

كيف لا ، وهو لم يكد يحبو على أربع .. حتى تسلل من جوارها فاندفع إلى عرض الطريق ليستقر أمام أول عربة قادمة ، ولولا فضل الله ، ومهارة السائق لطوته العجلات .

لقد صرخت يومها صرخة مدوية ، وعدت لتحمله من أمام العربة ، ولتتلقى سباب السائق وشتائمه ، وتعود إلى مقرها وهى تضم الطفل إلى صدرها وتبكى بحرارة وهو يحملق فى فزع وارتياع .. لسنا ندرى أمن الموت ، أم من النجاة منه ؟

ومن ذلك اليوم والمرأة تضعه وراءها أى تحجزه بين جسدها وبين السور القائم على جانب سكة الحديد .

وذات يوم بحثت عنه وراءها فلم تجده ، وأمامها فلم تجده ، وفى عرض الطريق فلم تجده ، وأخيرا وصل إليها صوته وقد استقر على شريط الوابور بعد أن نفذ من خلال السور وأخذ يلهو بالحصى .

وروعت الأم ، وانطلق صراخها يدوى فى الفضاء ، وذعر الناس وأقبلوا عليها ، وانطلق بعضهم فأحضر لها الطفل فى لمح البصر ، وأخذت تضمه إلى صدرها فى لهفة وهى تلهث كأنها عائدة من سباق . سباق مع الموت .

واستقر رأيها بعد ذلك على أن خير طريقة تحافظ بها على الطفل المغامر وتؤمنه من التهلكة هى أن تربطه بحبل من وسطه وتشده إلى إحدى قوائم الكوبرى .

وهكذا انتهى الأمر بالشِشتاوى إلى الربط فى العمود ، واستراحت أمه من مغامراته الخطيرة وأطمأنت إلى أن شقاوته — مهما بلغت — فلن تبعده عنها أكثر من متر أو متر ونصف — وهو كل ما يسمح له به قيده — من جولان فى المنطقة الآمنة .

ومع ذلك فقد أصر الششتاوى على أن يغامر بنفسه حتى فى المنطقة الآمنة وأن يوردها موارد التهلكة فى هذه الحدود الضيقة . وأن يروع أمه بصراخه ذات يوم فالتفتت إليه فزعة مرتاعة فإذا به — لا تدرى كيف — قد لف الحبل حول عنقه وأخذ يحبو حول العمود حتى ضاق عليه وكاد يشنق به نفسه .

ورأت الأم أن مسألة الحبل لم تعد ذات قيمة ، وخاصة أن الششتاوى منذ بدأ يتعلم المشى أضحى من العسير عليها تقييده فى هذه الحدود الضيقة .. فلم تر من إطلاقه بدا وطمأنت نفسها بأن الحذر لا يمنع القدر ، وأنه خير لها أن تترك الأمر لله العلى القدير .

وأخذت الأيام تمر ، والششتاوى يزداد على مرها نموا ، وأمه ما زالت قابعة فى مقرها تحت الكوبرى فى جهادها الصامت .. هى وصينية المشبك والشطيطة والكشرى . لا تضىء حياتها سوى بارقة واحدة ، ولا تسعى فى حياتها إلا لغرض واحد ، ولا تعيش إلا بأمل واحد هو الششتاوى .

وبلغ الششتاوى مبلغ التلاميذ ، واستحق فى نظرها أن يذهب إلى الكتاب فقد كان أملها فيه عظيما ، وكانت تعتقد أنه لابد أن يكون أفنديا .. حتى يأمن على الأقل عادية الموت قتيلا فى المذبح كأبيه .

أجل .. إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، وقد لدغت من المدبح ، ومن فن الجزارة مرة .. فمن الحمق أن تدفع بابنها إلى السبيل الشائك ، لتلدغ من الجحر مرة أخرى .

ولأول مرة فى تاريخ كوبرى المنيرة وعشش الماوردى يفتقد الناس « فاطمة شيخون » وابنها الششتاوى . فقد أقبل الزبائن فى مطلع الفجر ليبتاعوا مرتبهم اليومى من المشبك . فإذا بالمكان خلو منهما ، وهزوا رؤوسهم تساؤلا وعجبا وأسفا ، وخشوا أن يكون قد ألم بالمرأة أو الولد مكروه ، ولكن المعلم « سيد فرخه الطعمجى » أنبأهم نبأ عليم ببواطن الأمور بأن الششتاوى سيذهب اليوم إلى المدرسة .

ولقد كان الرجل مصيبا فيما قال . ففى هذه اللحظة بالذات ، كانت المرأة قد أتمت تنظيف ابنها وألبسته جلبابه الجديد وطربوشه الذى ابتاعته له من مولد الماوردى ودست قدميه — لأول مرة — فى صندل لامع براق .

وكانت قد أعدت فى المساء صينية الكسكسى ، وأتقنت طهيها ، لا لبيعها ، بل لإهدائها إلى « الشيخ زكى » ناظر مدرسة السعادة ، كرشوة أولية لقبول ابنها ، والتوصية عليه .

وربطت المرأة نقودها — ريالا وثلاثة قروش وأربعة مليمات — فى خرقة صغيرة دستها فى صدرها .. ثم حملت صينية الكسكسى على رأسها ، وسحبت الشنشناوى بإحدى يديها .

ووصل الموكب الصغير إلى المدرسة سليما ، ولم يكن وصوله سليما بالأمر السهل ، فقد كان من الصعب على المرأة أن تحتفظ بالصبى فى يدها ، وهو المقفاز المتواثب ، المعجون — على حد قول أمه — بمية العفاريت . فقد استطاع الزوغان منها أربع مرات : المرة الأولى أغرته عربة حنطور بالشعبطة وراءها فلم يستطع المقاومة ، وأفلت من يد أمه وأخذ يعدو وراء العربة فاعتلى الخشبة الكائنة فى مؤخرتها وظلت أمه تصرخ وتعدو بصينية الكسكسى على رأسها ، حتى تطوع أحد المارة ، فصاح بسائق الحنطور محذرا : « كرباج ورا يا أسطى » ، فقفز الشنشناوى إلى الأرض قبل أن يهوى عليه الكرباج .

والمرة الثانية . كانت إحدى عربات الرش هى سبب الإغراء . فقد كره الشنشناوى أن يرى زملاءه من أهل الحتة يتواثبون وراء العربة مغرقين نصفهم الأسفل بمائها الرشاش ، وأن يظل وحده المحروم من هذه النعمة ، ولعن المدرسة فى سره ، وود لو استطاع التخلص من قبضة أمه ، ولكنه وجدها تطبق عليه جيدا . فلم ير هناك خيرا من التحايل عليها حتى تفك إساره ، وبدأ يعرج فى مشيته .

والتفتت إليه أمه متسائلة :

ــ ما لك ؟

ــ الصندل وجعنى .. يمكن فيه زلطه .

وببساطة تركت أمه يده ليخرج الزلطة من الصندل . فلم يكد يحس بالحرية حتى اندفع بأقصى سرعة إلى عربة الرش ، ولاحقته صيحات أمه فزعة مرتاعة : « يا واد يا ششتاوى .. يا مقصوف الرقبة » .

و لم يفلح فى إعادته سوى توسل أمه إلى العربجى بأن يغلق المياه .

ولطشته أمه قلمين ، ولدعته قرصتين ، أفلحتا فى انتزاع بعض الصرخات السطحية ، وفى ردعه إلى حين .

أقول إلى حين .. أو على الأصح ، إلى حين قصير .. إذ لم يكد ششتاوى يستقر بجوار أمه بعد أن أغرق نفسه بالمياه حتى بدا فى الأفق خطر كبير هو الشيخ أحمد بسيفه الخشبى وعمامته الخضراء .

والشيخ أحمد هذا هو أحد مجاذيب السيدة زينب ؛ يقضى يومه طائفا بالطرقات والحوارى .. محاطا بجمهرة من الصبية منشدا معهم « الله حى .. عباس جى .. يضرب بمبه وهوا جى » .

ويعتبر ششتاوى .. على صغر سنه .. ساعد الشيخ أحمد الأيمن ، وعونه الأول ومنظم الهتافة ، وقائد المظاهرات ، وكان الشيخ أحمد يسير فى المقدمة وخلفه الششتاوى وإخوانه مكونين جيشا عرمرما .. يغزون به مختلف الأحياء .

وبدا الشيخ أحمد فى هذه اللحظة وقد ساق خلفه جيشه الذى لم يك ينقصه سوى الششتاوى .

وفجأة رفع الشيخ أحمد سيفه الخشبى فى الهواء فلم تشعر المرأة إلا وقد سقط ابنها بجوارها منبطحا على الأرض وهو يصيح بها أن ترقد مثله ، وفزعت المرأة وتملكها الذعر و لم تملك سوى الجلوس على الأرض بصينية الكسكسى وهى تتساءل فى رجفة عن جلية الأمر .

وهمس الششتاوى :

ـــ ألا ترين الشيخ أحمد قد رفع سيفه .. لابد أنه قد رأى العدو ؟

ونظرت المرأة إلى الشيخ أحمد وإلى الشحشتاوى وصاحت مغيظة :

ـــ إلهى يفضحك ، انت والشيخ أحمد .. قوم فز .

وتابعت سيرها ، وقد شدت قبضتها على الصبى بعد أن أقسمت ألا تتركه إلا أمام الشيخ زكى ...

ومع ذلك فلم تمض لحظة قصيرة حتى زاغ الشحشتاوى للمرة الرابعة والأخيرة .

لقد كان الإغراء فى هذه المرة أكبر من أن يقاوم . لقد كانت مسألة ترام ، والشحشتاوى لا يطيق أن يمر به ترام دون أن يتشعبط على الشمال .

وهكذا انطلق الشحشتاوى يعدو وأمه تصيح وتولول ، حتى استقر به المقام على سلم الترام فأشار إليها صائحا بأن تلحقه على المدرسة .. ما دامت لا تستطيع الشعبطة مثله .

ووصلت إلى المدرسة فوجدته فى انتظارها فساقته أمامها إلى غرفة الشيخ زكى ناظر مدرسة السعادة .

وكانت حلة الكسكسى براعة استهلال من « فاطمة شيخون » فقد أشرق لها وجه سيدنا وانفرجت أساريره وإن كان قد حاول أن يتمنع فى أول الأمر مدعيا أن « مافيش لزوم » ، وأن شحشتاوى كابنه ، وأن المرحوم أباه كان له أفضال عليه ، وأنه لا ينسى له الكوارع والفشش التى كان يتحفه بها بين آونة وأخرى !

وهكذا تم قبول شحشتاوى كطالب علم ، ووقفت أمه لوداعه قبل أن يختفى داخل المدرسة ، وأحست بألم الفرقة يعتصر قلبها وانحنت عليه تضمه إليها وقد اغرورقت عيناها بالدموع ، وهتفت بالشيخ زكى :

ـــ خلى بالك منه يا سيدنا الشيخ .

ثم ضمت إليها شحشتاوى ضمة أخيرة كأنه ذاهب إلى ميدان قتال وقالت له :

ـــ مش عايز حاجه يا شحشتاوى ؟

وهز الشثتاوى رأسه ، وطلب منها أن تنبئ الشيخ أحمد بأنه ذهب إلى المدرسة وأنه سيعود إليه بعد الفراغ منها .

***

وعاد الشثتاوى إلى البيت فى ذلك اليوم .. بعد أن اشتبك فيما يقرب من خمس معارك فقد فيها زر طربوشه وفردة صندل ومزق فيها جلبابه الجديد .

واستقر رأى الأم منذ ذلك الحين على أن تنقل مقرها من تحت الكوبرى إلى باب مدرسة السعادة ، حتى تضمن بقاءها بجوار ابنها ومرافقته فى غدوه ورواحه .

وهكذا أمنت عليه من كل شيء ، وزدعته عن ركوب المخاطر إلا شيئا واحدا هو الشيخ أحمد ، والعدو وراءه ، والهتاف له ، والمحاربة فى جيشه .

وظلت الأم ترى فى الشيخ أحمد مهلكة كبرى ، وعدوا مبينا ، فلشد ما كانت تخشى على صبيها من العدو وراءه ومن الرقود على قارعة الطريق والعربات غادية رائحة .

وفى عودة لها ذات مرة من المدرسة وقد سارت وصبيها إلى جوارها التقت بالشيخ أحمد منطلقا بجيشه يحارب العدو الوهمى المجهول رافعا سيفه الخشبى مهددا منذرا ..

ولم يكد يراه الشثتاوى حتى انطلق إليه منضما إلى جيش الصبية ، وثارت أمه وعدت وراءه تريد استعادته واعترضها الشيخ أحمد طالبا منها أن تكف عن الخوض بين جنوده الذين يحارب بهم العدو وإلا اضطر إلى أخذها أسيرة .

وأمسكت المرأة بخناقه وكالت له السباب صائحة به :

— يا راجل يا مخبول يا مجنون عدو إيه جالك عدو يحش رقبتك .

وهز الشيخ أحمد رأسه مشدوها يتعجب من جهلها وحمقها ، وكيف أنها لا تعرف العدو الذى يحاربه ، ثم شد رأسها إليه وهمس فى أذنها :

— ده خد منى تلاته .. مرة واحدة .

وبدت فى صوته رنة بكاء واختلجت عضلات وجهه ؛ وأردف قائلا :

ـــ ثلاثة أولاد مرة واحدة ، خدهم منى .. حرق قلبى .. وقطم وسطى .

وأحست المرأة برجفة تسرى فى جسدها وتركت الرجل وهى تهمس فى شفقة بالغة :

ـــ ثلاثة أولاد مرة واحدة ؟ الله يكون فى عونك .

ومدت يدها فأمسكت بالششتاوى وضمته إليها فى حرص وقد اغرورقت عيناها بالدموع .

وفجأة سمعت أحد الصبية ينادى :

ـــ ششتاوى ..

وتلفت الششتاوى فإذا بأحد رفاقه يناديه وقد تسلق إحدى مركبات الترام ، واندفع الششتاوى إلى صاحبه ، يريد أن يلحق به فى الترام فى اللحظة التى اندفع فيها ترام من الاتجاه الآخر ، وانطلقت فى الجو صيحة مدوية وفى غمضة عين كان الششتاوى أثرا بعد عين .

ووقفت المرأة فى مكانها كالمصعوقة ، ثم اندفعت تحتضن الأشلاء وهى تعوى ككلب جريح ، وفجأة أبصر بها الناس تترك الجثة وتعدو إلى حيث وقف الشيخ أحمد يحملق فى ذهول .. فتركع أمامه مولولة صائحة :

ـــ خده منى .. الحقنى .. قول له يرجعه .

وربت عليها المخبول بحنان ورفق وقال مشجعا :

ـــ ماتخافيش .. خليها على الله .

ثم ضرب بسيفة فى الهواء .

ومنذ ذلك اليوم لم ير الشيخ أحمد قط وحيدا .. لقد زاد عدد المخابيل واحدا .. وكانت « فاطمة شيخون » تلازمه أينما ذهب .. لقد كانت تحارب معه العدو المشترك .. عله يعيد إليها ما أخذ !

فى سيدى الحبيبى

وقد شب « زكى » وترعرع فى حانوت « المعلم عبده » الذى أواه يتيما ، وظل يستخدمه نظير إطعامه وإيوائه .. ولم يكن يعرف له مقرا سوى الحانوت وسيدى الحبيبى .. يقضى فى الأول يومه ويبيت فى الآخر ليلته ، لا يكاد يفارقهما لحظة واحدة .

الزحام على أشده ، والزبائن قد تجمعوا أمام باب الحانوت الكائن فى سيدى الحبيبى بشارع السد البرانى ، يتدافعون بالمناكب ويتضاربون بالأكتاف ، وقد امتدت أذرعهم وارتفعت أيديهم قابضة على القروش مطالبة بالبضاعة ، وتعالت صيحاتهم مستحثة متعجلة متلهفة :

« بتلاتة صاغ بساريه يا عم عبده . ببريزه بلطى وحتتين جزل وكتر الدقة . يا الله يا عم عبده أنا بقالى ساعتين واقفه ، عندك شبار ؟ عايز حتتين تعابين يا عم حسن . اشهل شويه يا عم عبده ، هو إيه يا أختى ده .

وفى وسط هذه المظاهرة يبدو « عم عبده من وراء الزجاج فى حركة دائبة كأنه المكوك .. تلتقط أصابعه قطع السمك المقلى من الصوانى النحاسية الصفراء المفروشة بعيدان خضراء من بقدونس وجرجير وتقذف بها فى عجلة لتعبئتها فى قراطيس جاهزة من الورق ، وتقذف وراءها بلفائف صغيرة معبأة بالدقة ، ثم يمد يده إلى أعلى مناديا جماهير الزبائن :

ـــ خمسه بلطى .

فتمتد يد الزبون المطلوب ويصيح معلنا عن نفسه « أيوه هنا » ثم يدفع الخمسة قروش ويتسلم قرطاس السمك .. ويقذف « عم عبده » بالنقود فى درج بجواره ثم يعاود عملية التعبئة ، وقد بدت على أساريره علامات الجد وتقارب حاجباه الثقيلان اللذان يتهدلان على جبينه كأنهما تندة أو مظلة وقد تجعد ما بينهما فى تجهم وصرامة ، وارتفع طرفا شاربه حتى كادا يلتقيان بأطراف حواجبه لتكون فى وجهه مستطيلا من الشعر تبدو فى داخله عينان زائغتان ظاهرتا الحول ، ووضع الرجل على رأسه لبدة بيضاء ملفوفة بلاسة حريرية وبدا رأسه الضخم وحواجبه الثقيلة وشواربه المبرومة لا تتناسب قط مع ضآلة هيكله ونحافة جسده .

وبين آونة وأخرى يتلفت الرجل إلى داخل الحانوت ليطلق صيحة مزمجرة منذرة :

— اخلص يا واد يا زكى ، الصوانى قربت تفضى ، اعمل لك همه لحسن اضربك ضربه اطير نفوخك .

ونترك عم عبده والزبائن فى صياحهم وضجيجهم ونتجه إلى داخل الحانوت لنلقى نظرة على ما به .. فنجد الصياح قد خف واستبدل به ضجيج من نوع آخر ، هو ضوضاء وابور الجاز وطشطشة قلى السمك فى الزيت ، وفوق كل هذا .. غناء الواد زكى .

والحانوت من داخله لا يسر الناظرين .. هباب يكسو السقف والجدران حتى لا تستبين من السواد لونها ، وحوض وصنبور ، وبالوعة فى أحد الأركان ، وأرض لزجة رطبة مليئة بمخلفات السمك من زعانف ومصارين ونخاشيش ، والجو قد انتشرت به رائحة الزفارة ورائحة القلية والثوم والكمون .

ووسط هذا التبلوه الرائع من الهباب والزفارة والقذارة وقف « الواد زكى » أمام الوابور وطاسة القلية ، وبجواره طست ملىء بقطع السمك النىء وقد أمسك بسيخ يقلب به السمك فى الطاسة ، ويدندن فى طرب :

« طلعت فوق السطوح سرقوا اللباس منك يا عبده .. لا والنبى يا عبده » .

وتنطلق صرخة مدوية من عم عبده ويهتز شاربه ويصيح مهددا :

ـــ التفت لى فى إيدك .. لحسن واللى نبا النبى أجى أقطعك جزل واقليك فى الطاسة اللى قدامك . آدى اللى انت شاطر فيه . لا والنبى يا عبده . دم لما يلهفك .

ويتمتم « زكى » ببعض كلمات الاستياء ويعتذر بأنه يقصد عبده آخر ، ثم يخلد إلى الصمت .

ومن العجيب أن تؤثر تهديدات المعلم عبده هذا التأثير فى زكى . فقد كان التهديد بأن يضربه ضربة تطير نافوخه وأن يقطعه جزلا ويقليه فى الطاسة يبدو مضحكا جدا .. لأن زكى هذا الذى يصر المعلم عبده على تسميته « بالواد » . كان يمكن أن يصنع منه أربعة كالمعلم عبده ، فهو مخلوق ضخم طويل .. عريض المنكبين ، مفتول العضلات ، كثيف شعر الصدر والذراعين ، كبير الرأس والوجه ، ضخم التقاطيع ، كأنه صورة مكبرة لإنسان ، أو كأنه من مخلوقات جلفر الوهمية .

وبقدر ما أسرفت الطبيعة فى صنع جسده بقدر ما بخلت فى صنع عقله ــ إن لم تكن نسيت أن تهب له عقلا ــ فهو أغبى خلق الله ، وقد عرف منذ نشأته الأولى باسم زكى الجحش .. حتى صار علما له ، وانقرض اسم أبيه فلم يعد له ذكر ، وقد شب وترعرع فى حانوت المعلم عبده الذى آواه يتيما ، وظل يستخدمه نظير إطعامه وإيوائه . ولم يكن يعرف له مقرا سوى الحانوت ، وسيدى الحبيبى ، يقضى بالأول يومه ويبيت فى الآخر ليلته .. لا يكاد يفارقهما لحظة واحدة ، حتى بات يألف السمك أكثر مما يألف الناس ، ونشأ بين الاثنين ــ أعنى بينه وبين السمك ــ نوع من الصداقة والود والثقة .

وكان زكى شديد النفور من الناس ، ينظر إليهم وقد تجمعوا وراء الزجاج يتصايحون ويتخاطفون قراطيس السمك ، كما ينظر الإنسان إلى حيوانات مفترسة ، وكان أكثر ما يسوءه عندما يخلو إلى نفسه ويجلس ليفكر ــ بفرض أن

فى رأسه شيئا يفكر به — هو أن الله قد خلقه آدميا و لم يخلقه سمكة .

ما حاجته إلى كل هذا الجسد الضخم ، والرأس الكبير المكسو بالشعر ، والأطراف الطويلة ؟ أين فمه المتسع من فم السمكة الصغير ؟ وأين ساقاه من ذيلها المزركش المنتظم ؟ وأين ذراعاه من زعانفها الدقيقة الرفيعة ؟

لشد ما كان يبعض هذا المنظر الآدمى القبيح ، ولشد ما كان ينظر إلى الناس من وراء الزجاج فى خوف وقلق .. وكان أكثر ما يضايقه أن السمك المسكين لا حول له ولا قوة ، وأنه يستسلم راضيا صاغرا للتقطيع والقلى ، وأن هؤلاء الوحوش يلتهمونه لقمة سائغة .

آه لو أصبح سمكة ، لالتهم كل هؤلاء الناس وانتقم للسمك المسكين .

وهكذا ظل « زكى الجحش » فى كرهه للناس وانطوائه داخل الحانوت بين السمك .. كل أمنيته فى الحياة هى أن يصبح سمكة ، حتى أبصرها ذات مرة وراء الزجاج بين جمهرة الزبائن من الوحوش الآدمية ، فإذا برأسه يدور .. وإذا به يترنح كالثمل !

من ؟

« سنيه أويه » ولا أحد غيرها . من غيرها يستطيع أن يفعل به ما فعلت ؟

رآها أول مرة وقد انحشر جسدها بين الأجساد المتراصة وعلا صوتها ينادى المعلم عبده طالبة منه بخمسة قروش بياض .

ورن صوتها فى أذنه رنة تختلف عن بقية الأصوات ، رنة بها حلاوة غريبة ، وتطلع إلى وجهها وأخذ يحملق فيه بذهول .

بياض ؟!

ما حاجتها إلى البياض ؟! وهى نفسها بياضة تملأ اليدين والذراعين ؟

وعادت البياضة تصبح منادية على المعلم عبده وما من مجيب ، وأخيرا أخذت تدفع الناس بيديها شاقة لنفسها طريقا بين الأجساد حتى وصلت إلى باب الحانوت ودلفت منه .

— ما شاء الله ! ما هذا ؟ إنه لم ير قط آدميا بهذه الكيفية ، هذا الوجه المستنير ، والخدان الموردان الشبيهان بالطماطم ، والمنديل المائل على أحد الحاجبين والورود الصغيرة المدلاة منه على شعرها المنسدل على الكتفين .

والكتفان .. أجاركم الله .. قد انزلقت من فوقهما الملاءة السوداء فكشفت عن قميص رفيع أبان معظم الكتفين .. بياضهما ونعومتهما ، والذراعين المليئتين ، والصدر الثائر على غطائه ، المندفع فى عنف ، القافز فى تحرر .

وسمعها تصيح فى غضب واستياء :

— إيه ده يا معلم ده ؟ بقالى نص ساعة أهاتى لما صوتى اتنبح ما حدش سائل فى .. عايزه بخمسه صاغ بياض .

ولم يرد عليها المعلم عبده بل صاح فى زكى :

— اخلص يا واد يا زكى لحسن الصينية فضيت .

واسترسلت البياضة تقول :

— يا الله والنبى يا زكى يا خويه ، اخلص اعمل معروف .

وأحس من قولها برجفة سرت فى جسده .

« يا زكى يا خويه » ؟ لقد كانت أول مرة يخلع عليه مثل هذا اللقب ، وممن ؟ من البياضة الساحرة الرائعة ؟

وانهمك زكى فى العمل بهمة ونشاط ، وقد أدار وجهه من فرط الخجل ، فقد أحس أنه لا يستطيع أن يحتمل طول التحديق فيها .

وانتهت الليلة على خير ، وجلس زكى فى خلوته بالحانوت بين السمك يحلم بالبياضة !

ومضى يومان بعد ذلك ، وزكى يحملق فى الزبائن ، شارد الذهن ، يبحث عنها فى لهفة دون أن يجد لها أثرا .

ثم حضرت فى الليلة التالية ، وظلت تحضر بعد ذلك كل ليلة لتبتاع السمك ولتلقى على زكى ما تيسر من التحيات الرقيقة .

وهكذا أنشب الحب أظافره فى قلب زكى الجحش .. قلب غشيم لم يعرف قط ما هو الحب ، ولا تطلع من قبل إلى شبح امرأة .

وظل زكى راضيا من البياضة بتلك التحيات الخاطفة ، قانعا بمرآها كل ليلة عندما تحضر لتبتاع السمك . حتى كان ذات يوم وقد وقف مع « سيد الخضرى » فى حانوته المجاور لحانوت المعلم عبده يسأله حزمة بقدونس ، عندما سمع صوت قبقاب يطرقع على أرض الرصيف بدقات موسيقية منتظمة ، ثم سمع صوتا ساحرا يصبح به :

ـــ العواف ياسى زكى ؟

وتلفت وراءه .. وكان يقف بالقميص والسروال ، فإذا به يراها هى بعينها ودمها ولحمها ، وقد أخذت تتشدق بلبانة بين أسنانها ، وتصدر منها بين آونة وأخرى طرقعة رائعة اللحن .

وارتبك زكى ، فقد كانت مفاجأة شديدة الوقع على نفسه ، ونزل عليه ـــ كما يقولون ـــ سهم الله. فلم ينبس ببنت شفة ، وعادت البياضة تقول :

ـــ يوه ، يا خويا ما تنطلق . العواف ياسى زكى .

وأخيرا منَّ الله عليه بالحديث ، فأجاب فى صوت مبحوح :

ـــ الله يعافيك .

وأخذ « سيد الخضرى » يصفق بكفيه تصفيق غزل ، ويلعب حواجبه ويصيح بالبياضة :

« يابت يا سونه . أموت فى الكوارع البلدى » .

ودهش زكى ، ونظر إلى سيد فى استنكار ، ثم سأله مستفسرا :

ـــ سونه ! اسمها سونه ؟

وأجاب سيد متسائلا فى دهش :

ـــ الله ! أنت مش عارفها ؟ دى البت سنيه أويه ، بت زى اللوز .. بتشتغل فى بيت زكيه العايقه .

— بتشتغل إيه ؟

— يعنى حاتشتغل إيه فى بيت زكية العايقة ؟ ناظره ؟ والا واعظه بتشتغل مره يا روح أمك .

— يعنى إيه ؟

— لا .. دانت نيله أوى ، عمرك ما رحت بيت زكيه العايقه ، صدق من سماك جحش ، تحب تروح معايا الليله دى ؟

وبدا على زكى عجب شديد وتساءل غير مصدق :

— نروح عند سونه ؟

وعاد سيد يؤكد :

— أيوه عند سونه . إيه . صعب ؟ إيدك على بريزه .

وهز زكى رأسه فى أسف ، فعاد سيد يقول :

— ما معاكش بريزه ؟ بلاش . أنا عازمك على حسابى الليله دى .. استنانى هنا بعد ما تشطبوا .

ومر اليوم بزكى وهو ذاهل شارد لا يدرى مما حوله شيئا ، حتى حانت الساعة الموعودة ، ورحل المعلم عبده إلى بيته وأغلق زكى الجانوت ، وبدل أن يأوى إلى سيدى الحبيبى كما تعود أن يفعل ، ارتدى جلبابه وجلس ينتظر فى الخارج وقد أخذ قلبه يدق بعنف ...

وأخيرا حضر سيد ، وسار الاثنان فى صمت حتى بلغا شارع سليم ، واستمرا فى السير فيه حتى عبرا شارع زين العابدين ثم دلفا يمينا إلى زقاق مظلم ، ثم أخذ سيد يجول به خلال الأزقة منحدرا به يمنة ويسرة وهو يحث الخطى وراءه فى صمت وقد شرد ذهنه فى « سنية أوية » ، وأخذ يتخيلها وقد سقطت عنها الملاءة السوداء ووقفت أمامه بالقميص الخفيف الذى لا يؤتمن على سر ، فهو لما فى داخله أفضح وأفصح وبما احتواه أبين وأشرح ، ثم زاد به الطمع فى الخيال فأخذ يجردها من غلالتها الرقيقة وتراءت له عارية من كل سوء ، أو — كما يقولون — يا مولاى كما خلقتنى .

وقبل أن يتمعن فيها وجد صاحبه وقف فجأة أمام باب خشبي واطئ فأصابه ارتباك شديد وهمس متسائلا فى ذعر :

ـــ وصلنا ؟ وهو دا بيت زكيه العايقه ؟

ـــ لسنه يا جحش .

ثم أخذ ينقر على الباب بسبابته نقرة معينة .

وعاد زكى يهمس فى دهش :

ـــ أمال ده إيه ؟ حانعمل إيه هنا ؟

ـــ حانوزن دماغنا يا تور ، حانعمر الفارغة ، خش ورايا .

وفى تلك اللحظة فتح الباب ببطء وأطل من ورائه وجه أخذ يتفحصهما فى حذر ، ثم صاح فى النهاية :

ـــ أهلا يا ابو السيد ، مين ده اللى معاك .

ـــ الواد زكى الجحش صبى المعلم عبده .

ودخل سيد ، ولم يملك زكى إلا أن يهرول وراءه فى دهش وذهول وهو يحاول أن يفهم ما عناه صاحبه بقوله « نوزن دماغنا » و « نعمر الفارغه » وظل يسير برهة فى سرداب مظلم أفضى به أخيرا إلى ضوء باهت يصدر من مصباح زجاجى ، وسرت إلى أنفه رائحة غريبة ليس له بها سابق معرفة .

وسمع سيد يلقى التحية بصوت جهورى « السلام عليكم » ، وتعالت بضعة أصوات مختلفة النغمات والنبرات مجيبة التحية : « عليكم السلام يابو السيد ورحمة الله » . وأخذ زكى يفحص المكان بعينيه فإذا به حجرة ضيقة قد احتشد فيها بضعة رجال جلسوا على الأرض فى شبه دائرة وقد اتكأوا بظهورهم على جدرانها الرطبة .

واتخذ سيد مكانه فى الدائرة وجذب زكى فأجلسه بجواره ، وصاح رجل يتخذ مكان الصدارة مناديا بصوت أجش :

ـــ يا واد يا دقدق . ماتياالله يا واد .

— حاضر يا معلم .

وظهر دقدق من الحجرة المجاورة وقد حمل فى يده جوزة صغيرة لا تكاد تفترق عن الجوزة التى أبصرها زكى على المقهى الكائن أمام حانوتهم إلا فى صغر حجمها وقصر غابتها .

ودارت الجوزة على الحاضرين ، وأخذ كل منهم يجذب منها نفسا طويلا ثم يسلمها إلى جاره ، حتى وصلت إلى سيد الذى أسلمها بدوره إلى زكى .

ومضت برهة وزكى قد أمسك الجوزة فى يده حائرا مذهولا ، وأخيرا ضربه سيد بكوعه وهمس به :

— شد منها نفس يا غشيم ، دانت نيله قوى .

ووضع زكى طرف الغابة فى فمه وجذب منها نفسا طويلا جعل جاره الآخر يصيح به :

— حيلك حيلك ، كفايه كده .

وسلم زكى الجوزة لجاره ثم أخذ يرقبها تنتقل مرة أخرى فى دورة ثانية حتى وصلت إليه :

وأحس زكى بعد النفس الثانى بضيق فى تنفسه وكأن شيئا ثقيلا يجثم على صدره ، ولكنه أخذ يخف رويدا رويدا حتى أحس بنفسه قد بات خفيفا كأنما يوشك أن يطير ، وأحس كأن ذراعيه قد تحولتا إلى جناحين .. ونظر إلى الحاضرين فإذا بهم يتضاءلون وينقرضون حتى أضحوا كالنمل ثم اختفوا نهائيا .

وتلفت زكى حوله فإذا بجو الحجرة قد ملئ بدخان أزرق ووصل إلى أذنيه صوت أنغام لطيفة تأتى من بعيد استطاع أن يتبين خلالها صوت سنية وهى تهتف : « العواف ياسى زكى » .

وأحس ببرودة لطيفة ، ووجد الدخان يتثاقل حوله ويتكاثف ، وبدا له أنه محاط بضباب ثقيل أخذ يتحول تدريجيا إلى قطرات ماء حتى أضحى محاطا بالماء من جميع الجهات ، و لم تجد قدماه ما تستقران عليه ، بل أعجب من ذلك أنه لم

يجد له قدمين بالمرة ، بل وجد بدلهما ذيلا منمقا كذيل السمك .

عجبا ! كيف حدث هذا ؟! لقد أضحى زكى سمكة ، إى والله .. هذا هو الذيل ، وتلك هى الزعانف . إنه يستطيع أن يتنفس فى الماء بمنتهى السهولة ، ويستطيع أن يروح ويغدو كما يشاء .

حمدا لله ، لقد تحققت أمنيته التى طالما ذابت نفسه شوقا إليها ، لقد فارق الوحوش الآدمية إلى غير رجعة ودخل فى عالم السمك .. أيتها الأسماك أبشرى ، إن زكى ملك الأسماك سيثأر لك من ابن آدم .

وأخذ زكى القرموط — فقد وجد نفسه أشبه بالقراميط — يتجول فى عالمه الجديد ، وطال به التجوال حتى أحس بالجوع دون أن يجد ما يسد به رمقه .

شىء عجيب ! أليس لديهم فى هذا العالم ما يؤكل ؟ ولو لقمة بجبنة ؟

وفجأة لاحت له فى الماء اللقمة التى يتلهف عليها .. واتجه إليها محركا زعانفه وذيله فى عجلة حتى وصل إليها ، وفتح فمه فأطبق عليها .

وهنا كانت الكارثة .

يا له من حمار أحمق ! لقد أحس بشىء حاد يخترق فمه وينفذ إلى أذنه ، كيف انزلق إلى الطعم بمثل هذه السهولة ؟

أيصطاده إنسان ولما يمض عليه فى الماء بضع دقائق ؟ أهكذا يقع غنيمة سهلة باردة ؟

وحاول أن يخلص نفسه من السنارة ، ولكنه وجد نفسه ينجذب بسرعة إلى على ، وفى غمضة عين وجد نفسه خارج الماء .

وأخذ يضرب بذيله محاولا الفرار .. وأدار رأسه فوقعت عيناه على الصياد الشرير والمجرم الأثيم .

من هذا ؟! إنها هى ، هى بعينها .. سونه ، من يصدق هذا ؟ كيف تكون هى أول من يخرجه من عالمه المحبوب ؟

ووجد الهواء يثقل عليه ، وتملكه ما يشبه الإغماء ، وأحس بالمرأة تقلبه بين

يديها ، ثم أبصر بها وهى تتناول مقصا وتأخذ فى قص زعانفه وذيله ثم دفعته فى نخاشيشه وهو يستعطفها ويتوسل إليها أن ترحمه وتتركه لوجه الله ، ثم سمع صوت الوابور وطشطشة الزيت ، وأحس بشيء أشبه بالسيخ ينخسه فى جنبه ، فحاول التخلص منه ولكنه استمر ينخسه ، وسمع صوتا يصيح به :

— ياللا بينا .

وفتح عينيه بتثاقل فإذا بسيد يضربه بكوعه فى جنبه ، وعاد يقول له ملحا :

— فوق بقى ، الغرزة شطبت .. ياللا بينا .

وتساءل زكى فى صوت خافت :

— على فين ؟

— على زكيه العايقه ، تشوف الست سنيه .

وصاح زكى فى فزع .

— سنيه ؟ أبدا ! أنا فى عرضك ماروحشى ، كفايه اللى عملته فى ، رجعنى الدكان ابوس إيدك .

وعاد به سيد إلى الدكان ، ولم يتطلع زكى بعد ذلك إلى « سنيه » إلا وسرت فى جسده قشعريرة خوف ، لقد كانت تلك هى مغامرته الأولى والأخيرة .

فى البغالة

كان هذا الحديث أشبه بشريط مسجل يعاد كل صباح بين أبى سريع وأمه .. لا يكاد يختلف اليوم عنه فى أمس ولا فى غد .. يدور بينهما قبيل الفجر فى المندرة التى يقطنانها فى شارع ممتاز بالبغالة .

الساعة الرابعة صباحا . وبين حين وآخر تعلو أصوات الديكة من هنا وهناك ، وأبو سريع يدعك عينيه ويتقلب على جنبيه وهو يتمطى ويتثاءب ، ومن أقصى الحجرة ينبعث صوت رفيع حاد كأنه صوت الضفادع ينادى نداء ملحا متواصلا :

ـــ أبو سريع .. أبو سريع !

ويجيب أبو سريع بمزيد من التمطى ومزيد من التثاؤب ، ويستمر الصوت فى إلحاحه :

ـــ أبو سريع .. أبو سريع !

وهنا يزوم أبو سريع ، ولكن الصوت لا يعتبر الزومان إجابة كافية ، ويستمر فى توسله :

ـــ قوم يا ابنى . قوم يا خويا الله يهديك . أبو سريع أبو سريع .

وعلى حين غرة تنطلق من أبى سريع صيحة غضب بعد نفاد صبره ويجيب ساخطا .

ـــ ما قلنا طيب . خلاص صحينا . لمي لسانك واتكتمى بقى . والا عليك

عفريت اسمه أبو سريع ؟!

ــ قلبى عليك .. يرفدوك وترجع ماتلاقيش اللضا .. وتبقى داير من قهوه لقهوه زى المقاطيع !.

ــ اصطبحى وقولى يا صبح .

كان هذا الحديث أشبه بشريط مسجل يعاد كل صباح بين أبى سريع وأمه .. لا يكاد يختلف اليوم عنه فى أمس ولا فى غد ، يدور بينهما قبيل الفجر فى المندرة التى يقطنانها فى شارع ممتاز بالبغالة .

وكان أبو سريع قد التحق حديثا بعمله الجديد .. كمساريا فى شركة الترام .. وقد أحست أمه عند عودته إليها لأول مرة ببدلته الرسمية الصفراء ؛ بأنها قد بلغت أقصى أمانيها .. وأنها لم يعد ينقصها غير شيء واحد حتى تموت مستريحة البال .. قريرة العين .. هو أن تفرح به ، وتلمه على بنت الحلال .

ولم تكن المرأة مبالغة فى فرحتها بأبى سريع بعد أن استقرت به الحال وأضحى موظفا يرتدى السترة والبنطلون والطربوش .. أو بمعنى آخر : أفنديا .. فقد كانت المسألة حقا تستحق الفرحة .. أولا لأنه كان أول أفندى فى العائلة الكريمة ، وثانيا لأنه ــ هو بالذات ــ كان آخر من يتصور إنسان أن تستقر به الحال فينتظم فى عمل أيا كان .

تلك كانت هداية من الله .. وكانت حسن الختام لحياة الشقاوة والبلطجة التى كان يرتع فيها أبو سريع .

من كان يصدق أن هذا المخلوق الهائم الشارد المطيور الذى لا يحمل نفسه عبء مسئولية ، أو يثقل عليها بتفكير فى مصير ، أو خوف من مستقبل ... المخلوق الذى لا يضيق بهمّ أو يسعى إلى رزق ، أو يجهد فى عمل .. المخلوق المغرق فى لهوه ومرحه وعبثه .. من كان يصدق أنه يمكن أن ينطوى فى وظيفة ذات حدود وقيود ونظم ومواعيد !

كان أبو سريع .. من يومه ــ كما تقول أمه ــ شضليا مهياصا متلافا ..

لا يعتمد عليه فى شىء ، ولا يركن إليه فى عمل .. فما كان يطيق الذهاب إلى الكتاب إلا بعد علقة صباحى يتناولها على الريق .. من خيزرانة أبيه ، وكان كثير الفرار من الكتاب ، كثير المقالب فى شيوخه .. وأمه ما زالت تذكر كيف حاول الشيخ « شحتوت » حبسه — وهو فى السابعة من عمره — فى زنزانة كتاب الاجتهاد فقفز من النافذة وهبط إلى الأرض .. لا لينجو بجلده .. بل ليتسلل إلى حجرة الشيخ « شحتوت » نفسه ويغلقها عليه ، وهو جالس يصلى ، ويتركه سجينا فى الغرفة حتى أطلق الفراش سراحه فى اليوم التالى .

وتذكر كذلك كيف كان يحتفظ بقشر البطيخ ليأخذه معه إلى الكتاب قائلا : إن القشر الأبيض ينفع فى اليوم الأسود ، وأن له فيه منافع جمة .. أهمها ضرب أقفية التلاميذ فى أثناء الدرس ، وزحلقة « الشيخ بندق » عند دخوله الفصل أو خروجه منه !

وأخيرا هرب من الكتاب .. ومن كل كتاب آخر حاول أبوه أن يدخله فيه .. ولم يكن نصيبه فى المدارس الابتدائية بأحسن من نصيبه فى الكتاتيب .

وانتهى الأمر بأبيه .. بعد أن فقد كل أمل فى جعله ابن مدارس .. وفى أن يكون أبا لموظف متنور متعلم .. يغيظ به الأقارب ويكيد به الحساد ، انتهى الأمر به بعد طول يأس وقنوط إلى أن يحجزه فى دكانه ويحاول الاستغناء به عن أحد صبيانه ، وأن يقنع بأن يورثه مهنته ويخلفه فى عمله .

وهكذا بدأ أبو سريع يعمل كصبى لبان فى شارع ممتاز يقوم بتوزيع اللبن على زبائن حى البغالة فى أقساط الصفيح صباحا .. ويحمل الصينية الخشب المليئة بسلاطين الزبادى لبيعها مساء ، وفيما بين هذا وذاك ، كان عليه أن يقوم بما يلزم من غسل الأقساط وجمع السلاطين وإشعال المنقد .. وتنظيف الدكان .

كان هذا هو عمل أبى سريع ، أو على الأصح ما كان يجب أن يعمله كصبى لبان .. صبى عاقل كبقية خلق الله من الصبية .

ولكن أبا سريع لم يكن كبقية خلق الله .. ولو كان خلق الله كلهم كأبى سريع

ولما قامت للدنيا قائمة .. ولا انتظم فيها عمل .. لأن أبا سريع كما قلنا كان يحس دائما بأنه غير مسئول عن أى شىء .. وأنه يجب ألا يكون قط مسئولا .. فهو لا يفعل إلا ما يحب ويشتهى .. وهو ما دام مبسوطا فعلى الدنيا السلام .. لقد كان قوله المأثور إذا ما سئل عن خطأ أو مخالفة « إنه مبسوط كده » .. لقد كان نموذجا لإنسان ضارب الدنيا صرمة أو حاطط فى بطنه بطيخه صيفى أو كما تقول أمه :

« ما حدش واكله عجين » !

وعلى ذلك فمن الحمق أن نظن أن أبا سريع — كصبى لبان — يمكن أن يعمل ما يجب على صبى اللبان عمله .. من كل ما ذكرنا من واجبات .

إذن .. فماذا كان يفعل أبو سريع .. !

لنرقبه فى أول خروج له ، وقد حمل صينية الزبادى على رأسه وهو فرح مسرور لمجرد أنه يعمل شيئا جديدا وأخذ يطوف بالحوارى مناديا :

« يا قشطه يا زبادى » .

ثم يخطر على باله فجأة أن يذهب إلى شارع التلول حيث تعود أن يجتمع برفاقه وهم يلعبون كرة الشراب ليرى ماذا يفعلون .. وليريهم أنه قد أضحى صاحب عمل ، وصاحب صينية .

ويهل على باب الحارة .. فيلمحه الصبية المنهمكون فى اللعب .. فيقفون اللعب ويصيحون به فى دهشة :

— إيه ده يا وله يابو سريع !

فيقول مفتخرا :

— لبن زبادى .. حدش له غرض !

ويقذف أحدهم بالكرة .. ويحس أبو سريع أن رجله تأكله على اللعب .. وتقترب الكرة منه .. فيشتد الإغراء وتضعف المقاومة . فيستعدل لها ويرجع ساقه إلى الخلف ، ثم يسدد إليها ضربة قوية .. تقذف بها إلى أقصى الحارة ،

وتقذف به طريحا على الأرض وسلاطين اللبن فوقه .

وينهض أبو سريع متحاملا على نفسه .. ويتزاحم عليه الرفاق يلعقون ما علق به من الزبادى .. ثم يساعدونه فى لم الأنقاض .. ويعود إلى أبيه حاملا بقايا الزبادى ، وشقافة السلاطين .. ويخبره ببساطة أنه تزحلق على قشرة بطيخ .

ويحتار أبوه فيما يفعله به ويثور ويقسم أن يرسله إلى الأحداث . فتهدئه أمه . وتذكره بأن هذه هي المرة الأولى التى يخرج فيها .

ويخرج فى المرة الثانية ليتجه رأسا إلى شارع التلول وليضع الصينية على أحد الشبابيك وينهمك مع الصبية فى اللعب !

وترتفع الكرة .. لتستقر فى وسط الصينية .. وتقلب عاليها سافلها .. ويعود أبو سريع ليخبر أباه أن السبب هذه المرة كان قشرة شمامة !

ويهيج أبوه ويثور .. ويقسم أنه لابد أن يحطم رأسه ، وتتدخل أمه قائلة « التالته تابته » وأنه يجب أن يعطى الصبى فرصة أخيرة .

ويخرج أبو سريع فى المرة الثالثة .. ويبدو كأنه قد حقق رجاء أمه .. وأن « التالته » حقا « تابته » . فلقد عاد فى المساء بالصينية فارغة .. بعد أن جبر كل ما بها وأخبر أباه أن الزبائن سيدفعون الحساب آخر الشهر .

وهكذا ظل أبو سريع يخرج كل يوم بالمليان ويعود بالفارغ ، وأبوه مطمئن وأمه راضية .. ولم يكن أبو سريع نفسه بأقل منهما رضا وهناءة .. فقد كان كل ما يفعله .. هو أن يذهب إلى شارع التلول فلا يضع الصينية على النافذة حتى لا تهبط الكرة عليها فتتلف اللبن .. بل يجمع الرفاق ويوزع عليهم السلاطين .. فيأتون على ما بها ، ثم يكومونها فى حفرة بالأرض ويغطونها بالصينية .. وينهمكون فى اللعب .. وفى النهاية يأخذ أبو سريع السلاطين الفارغة ويعود إلى البيت .

وانكشف الأمر فى نهاية الشهر .. وأقسم أبوه بالطلاق ثلاثا .. أن يطرده من الدار .

وظلت أمه تبكى وتنوح قائلة : إن المحروقة الكورة هى السبب فى كل ما حدث .

و لم تطل غيبة أبو سريع عن الدار .. أكثر من يوم . فقد تدخل القدر وأقسم ثلاثا أن يكون الأب هو المطرود . وعاد أبو سريع ليصبح رب الدار .. بعد أن استقر أبوه فى مقره الأخير .. باب الوزير .

وتوقعت الأم أن يهتدى أبو سريع .. ويكبر ويتولى أمر الدكان بعد أبيه .

ولكن خاب أملها .. فقد استمر أبو سريع على حاله وكان أول ما فعله بعد موت أبيه هو أن ابتاع لنفسه جزمة فوت بول .. وفانلة مخططة وشرابا ملونا .. وأنبأ أمه أنه قد أضحى كابتن « تيم الأسد المرعب » .!

وتولت الأم أمر الدكان لتطعم نفسها .. وابنها .. وتيم الأسد المرعب !!

أجل .. لقد كانت المرأة مسئولة عن إطعام وأيواء أفراد « تيم الأسد المرعب » من الضائعين والشحاتين .. الذين تعودوا أكل اللبن الزبادى كل مساء .. عقب كل مباراة .

وانتقل ميدان اللعب من شارع التلول إلى أرض الطيبى بسيدى الطيبى ، وهى أرض متربة تغوص فيها قدم اللاعبين إلى مسافة تزيد على ربع متر داخل الأرض .. وكان أبو سريع وبقية أفراد التيم .. يقضون نصف عمرهم .. مدفونين فى هذه الأتربة .. والنصف الآخر فى مقهى « أبو الفضل » فى أول شارع السد .

واشتهر أبو سريع .. « كابتن تيم الأسد المرعب » .. فقد كان التيم دائم الفوز ، لأنه لا يلاعب الأتيام الأخرى إلا فى أرض الطيبى وهى أرضه التى اعتادها والتى لا يستطيع أى تيم سواه أن يلعب فيها ، فقد كانت الأتربة تثور من الأرض وتملأ الجو فيختفى كل شىء عن أعين اللاعبين ، ويختفون هم عن أنفسهم ، وتختفى الكرة عن أبصارهم ، فلا ترى إلا وقد استقرت — بقدرة قادر — فى مرمى التيم المضاد .

وهكذا كان « تيم الأسد المرعب » لصاحبه أبو سريع ، دائم الفوز ، بعد أن أصبح اختصاصيا فى اللعب وراء ستار من الغبار ، أو قل إنه أضحى لا يشق له — وسط الغبار — غبار .

وفوضت الأمر أمرها لله ، ولم تعد ترجو من ابنها أفضل مما هو عليه . وهيأت نفسها لقبول الأمر الواقع ، بل لقد كانت تذهب من آن لآخر بناء على إلحاح ابنها ، لترى مباريات الغبار التى كان ابنها وأفراد التيم يثيرونها فى أرض الطيبى .

واستمرت الحال على هذا المنوال حتى كان ذات يوم — وبدون سابق إنذار ولا مقدمات — إذ أنبأها ابنها .. أنه سيتوظف .

وفغرت الأم فاها من العجب ولم تصدق أذنيها بادئ الأمر .. واستعادته القول ، فأنبأها فى لهجة حاسمة مؤكدة أنه سيتوظف فى وظيفة محترمة ، كمسارى فى شركة الترام .

وظنت المرأة أن ابنها يمزح فقد كان من البلاهة أن تتصور أن أبا سريع يمكن أن يصبح انسانا نظاميا .

أبو سريع . يصبح كمساريا ؟ . غير معقول ولا جائز .

أبو سريع ، يرتدى البدلة الصفراء والطربوش ، بدلا من الفانلة المخططة وحذاء الكرة !.. لا يمكن !

أبو سريع ، يحمل حقيبة ودفتر تذاكر ، ويجمع من الركاب نقودا ؟ أبدا ..؟

ومع ذلك .. فما كادت تمضى بضعة أيام .. حتى أقبل أبو سريع من باب الحارة ، وقد سبقه صوت الزمارة يعلن عن قدومه ، ثم بدا أمامها يتبختر فى حلته الصفراء .!

وانطلقت أول زغرودة من فم المرأة . وأقبلت عليه تقبله وتحتضنه ، واغرورقت عيناها بالدموع ، وهى تحمد الله على أن هداه أخيرا .. وأن حقق لها أمنيتها الأولى .. ودعت الله بحرارة أن يحقق لها الأمنية الثانية ، وأن تتم فرحتها بأبى سريع بزواجه ببنت الحلال .

وتساءل الجيران فى حيرة عن سر تلك المعجزة التى حلت بأبى سريع ، فجعلت من الضائع الصائع المهياص المتلاف — فى يوم وليلة — موظفا محترما ، وانسانا عاقلا مسئولا .

أجل إنها لا يمكن أن تكون أقل من معجزة تلك التى تجير صاحبنا على أن يقبل — بمحض اختياره — ترك أرض الطيبى وقهوة أبى الفضل ، إلى سلم الترام ومتاعبه وقيوده .

ولقد كان ما أصابه حقا معجزة ، لا من السماء بل من الأرض ، معجزة قد لفها الله فى ملاية لف ، ورج منها الصدر وهز منها الردف .

كانت معجزة « بأويه » ، تتشدق باللبانة وتطرقع من وراء البرقع ، وقد استقرت العروسة الذهبية على أنفها الدقيق ، وبدت العيون وفى طرفها حور من نوع قاتل فتاك .

كانت المعجزة هى : نجف .

نجف ولا أحد غير نجف ، إنها السبب فى كل ما حدث . أبصرها أبو سريع أول مرة ، وهو يجلس على المقهى فى (ترام ٥) المتحرك ما بين المدبح وغمره ، ثم أبصرها ثانى مرة فى (ترام ٥) أيضا ، وثالث ورابع وخامس مرة ، برضه فى (ترام ٥) ، بل إنه لم يبصرها قط فى غير (ترام ٥) ، إما ذاهبة إلى المدبح ، وإما عائدة من المدبح .

ومست « أبو سريع » من حبها جنة ، وأضحى صريع هواها وقتيل (ترام ٥) ، وزاد من جنونه ، أن « نجف » كانت تجيد ضروب الصد والإعراض . وأنها كانت تجلس فى الحريم حتى تقطع عليه كل طريق للوصول إليها .

ومرت الأيام بأبى سريع وهو مضنى جفاه المرقد ، صب أرقه الهوى ، لا يأمل فى وصول ، ولا ينعم بلقاء .

وأخيرا منَّ الله عليه بالفرج عندما اقترح عليه صاحبه « حنفى » سائق الترام

أن يعمل معه فى الشركة كمساريا ، وأفهمه أن الشركة سترحب به كلاعب كرة يمكن أن يفيد تيم الكرة بها ، وأنه يمكن أن يتوسط له لكى يعين فى (خط ٥) ، وبذلك تتاح له فرصة لقاء « نجف » والحديث معها يوميا .

وهكذا حدثت المعجزة واشتغل أبو سريع كمساريا ، وبدأ ركاب (ترام ٥) يشاهدون فى ترام أبو سريع مسرحا لأبدع ضروب الفكاهة والتسلية واشتهرت زمارة أبو سريع بأنها تقاسيم صبا ، فقد كان يجود فيها تجويدا رائعا ، وكان كثيرا ما يوقف الترام ليبدأ فى تشنيف آذان الركاب بأغنية نجف صائحا : « آه يا نجف ، آه يا نجف ، آه يا نجف ، حلو يا نجف » أو « يا لفتك فى الملايه حرمتنى أهلى ، امتى تدوب الملاية وتمشى على البهلى » .

وكان كثيرا ما يوقف الترام أيضا ، ليجرى وراء بائع عرقسوس ، ليحمل منه كوبا يبل به ريق « نجف » أو يعدو إلى بائع الجزر ليتحفها بشرشين جزر ، أو حمل ملانة ، أو خص .

كل هذا و « نجف » مستمرة فى صدها ممعنة فى إعراضها ، وأبو سريع صابر راض ، حتى كان ذات يوم حلت الكارثة ونقل أبو سريع وصاحبه حنفى من (خط ٥) عقب وشاية من أحد المفتشين .

وخرج أبو سريع ذات صباح من داره حزينا ليتسلم مع حنفى إحدى عربات (خط ٧) المتحرك بين غمره وروض الفرج وبدأ الترام سيره من غمره فى حزن واكتئاب حتى توقف أمام محطة « نجف » ونظرت « نجف » إلى نمرة الترام وإلى أبى سريع وهزت رأسها فى دهشة .

وقال أبو سريع :

— اتفضلى .

— لأ . أنا رايحه المدبح .

— دا ترماى ٧ ، اللى بيودى على روض الفرج .

— عشان عيونك نوديه المدبح ، ودين النبى ما هو رايح إلا المدبح .

وأحبت « نجف » بدافع خفى يدفعها إلى أن تركب مع « أبو سريع » حتى ولو ذهب بها إلى جهنم .

إنها لم تعد تستغنى عن « أبو سريع » ، لا تدرى لم ؟ قد يكون الحب !

وركبت « نجف » ، وانطلقت زمارة « أبو سريع » ، تتراقص وتتلوى وتتأوه .. وانطلق هو يصفق ويصيح بأنشودة : « آه يا نجف » ..

وفى مفترق الطرق صاح « أبو سريع » بحنفى قبل أن يطلق زمارته :

— على طول يا حنفى على المدبح عشان خاطر عيون نجف .

واندفع إلى عامل التحويلة فحول الخط إلى المدبح وانطلق الترام ٧ بركابه لأول مرة إلى المدبح بدلا من روض الفرج .

وضج الركاب فأفهمهم أبو سريع أنه مبسوط كده ، واللى مش عاجبه ينزل .

وعاد أبو سريع إلى أمه فى ذلك اليوم ، وهو يرقص عشرة من مدخل الحارة . وطلب منها أن تبارك له ، لأنه سيتزوج ، فقد رضيت به « نجف » وأنبأته أنها تحبه .

وانطلقت الزغرودة الثانية من فم المرأة فقد حقق الله كل أمانيها ، وهتفت والدموع تترقرق فى عينيها :

— الحمد لله ربنا حقق الحاجتين اللى كانت نفسى فيهما .

— حاجتين ؟ .

— أيوه الوظيفة والجواز .

وأطرق أبو سريع برهة ، ثم أجاب فى أسف :

— اسمعى يام ، ربنا خد واحده منهم .

— خد واحده ؟

— أيوه ، الوظيفة .. الشركة رفدتنى النهار ده علشان وديت ترماى ٧

المدبح عشان خاطر نجف .

وضربت المرأة بيدها على صدرها صائحة فى انزعاج ، ولكن انزعاجها على رفت أبو سريع لم يطل ، فقد أصلح الزواج حاله وعلمه المسئولية فتولى أمر دكانه ، وأضحى المعلم أبو سريع اللبان الشهير فى البغالة والأربع عشرة مديرية .

فى حارة السيدة

وهكذا حواء تأخذ من الجميع ولكنها لا تهب إلا لمن تحب .. حتى ولو كان زبالا فى خرابة .

ترى .. هل تختلف حواء حارة السيدة كثيرا عن حواء الزمالك ، والمعادى ، وجاردن سيتى ؟

الساعة السابعة مساء .. والضجيج على أشده على باب حارة السيدة ، وقد تزاحمت عربات الباعة أمام الحوانيت وتعالت الأصوات واختلطت نداءات الباعة بصيحات المارة .

وعلى ناصية الحارة دكان كتب على لافتته « على على على وولده على » ، ورغم أن اللافتة لا تنم صراحة على كنه الحانوت ، إلا أن الواجهة الزجاجية تنبىء عما خفى من أمر اللافتة ، وتكشف بوضوح عن نوع البضاعة التى يتجر فيها صاحب الحانوت .

أول ما يلفت النظر من زجاج الواجهة : إنسان يتحرك يمنة ويسرة بطريقة أوتوماتيكية سريعة منتظمة كأنه بندول الساعة .. وقد ينهمك فى العمل أو يكف عنه ، وقد يندفع فى الحديث أو يلوذ بالصمت ، وقد يفعل كل شىء .. أو لا يفعل شيئا أبدا ، ولكنه مع ذلك لا يكف عن الحركة ذات اليمين وذات اليسار .. حتى ليبدو أن هذه الحركة هى الوضع الطبيعى له ، وأنها لا علاقة لها ألبتة بما يأتيه من أعمال ، فهى كحالة الثبات عند سواه من الآدميين .

فإذا ضربنا صفحا عن حركة صاحبنا البندولية .. وأخذنا فى فحصه هو ..

وجدنا فيه مخلوقا سمين الجسد .. هرمى الشكل ، منتفخ البطن ، أبيض البشرة .. مشدود الجلد لامعه ، شديد الشبه بالطبلة .. يرتدى جلبابا بلديا ويضع فوقه فوطة كتلك التى يرتديها الطباخون ، ويضع فوق رأسه طاقية شبيكة بيضاء ، ويدس قدميه فى « بلغة » صفراء .

هذا عن الشكل ، أما عن الموضوع .. فنحن فى حيرة شديدة .. أى الرجلين هو ؟ أهو صاحب الحانوت على على على أم ولده على ؟

لنتتبعه فى عمله برهة .. علنا نصل إلى الحقيقة .. فنعرف من يكون !.

الرجل ما زال فى اهتزازه الدائم ، وقد رصت على « البنك الرخامى » الذى يقف خلفه قطع صغيرة من العجين فى حجم قبضة اليد ، وبجواره واجهة نحاسية لفرن بدت من فتحته بضع فطائر دست فيه ، ويمسك الرجل إحدى قطع العجين ، فيضغطها بين يديه .. ثم يطرق على الرخامة ويتناولها بأصابعه ، وفى لمح البصر تجده قد نشرها فى الهواء كأنها منديل محلاوى ، ثم يأخذ فى طى أطرافها وتطبيقها وهو يغمس أصابعه بين أونة وأخرى فى آنية ملأى بالسمن ويقطر منه فى جوف الفطيرة ثم يطوح بها إلى فوهة الفرن .

وهكذا يتضح لنا أن الرجل بلا أدنى شك فطاطرى ، ومع ذلك فقد بقى علينا أن نكشف اللغز ، ونحل العقدة ونعرف هل هذا الرجل هو نفسه صاحب المحل أم هو ولده على .

ويصيح أحد الصبية المتكأكئين على باب الحانوت :

ـــ أربع فطاير بالسمن ، وخلى السكر لوحده !.

ويأخذ الصبى الفطاير ويغادر الحانوت دون أن يطالبه الرجل بالثمن .. لا هو ولا غيره .. ممن سبقوه .

وقد يثير الأمر دهشة الغريب عن الحانوت فيتراءى له أن صاحبنا يبيع فطايره شكك أو يوزعها مجانا ، ولكنه لا يكاد يتبع أحد الزبائن حتى يجده قد توقف أمام عجوز نحيل الجسد أشعث اللحية ، قد استقر متربعا على كرسى من الخوص

وتناول فى يمناه مبسم شيشة يكركع بها بين آونة وأخرى وينفخ من فيه حلقات الدخان كأنه مدخنة فرن ، ويسعل ويتنخم ويبصق ، ثم يمد يده إلى الزبون الواقف أمامه فيتناول منه ثمن الفطير .

ومن هذه العملية تستطيع أن تجزم أن هذا العجوز هو الكيس .. وأنه كذلك لا يمكن إلا أن يكون هو نفسه على على .. ويؤكد لنا هذه الحقيقة صيحة تنطلق من منتصف الشارع كأنها الرعد .. لو حاولنا تفسيرها لما وجدنا فيها سوى « سلامو عليكم يا حاج على » .

ويرد « الحاج على » التحية بصوت متحشرج متقطع .. فيطلق صاحب التحية صيحة أخرى متسائلة تحتوى على « أوزن رطلين ؟ » .

ويجيب الحاج على باقتضاب :

— لأ ..

— دا زى اللوز ..!

— قلت لأ ..

ولكن صاحبنا لا ييأس ، ويعاود الإلحاح بطريقة مباشرة .. فيضع كفه على صفحة وجهه ويغمض عينيه ويرفع عقيرته بما يشبه الغناء مناديا : « والنقا لوز يا سيوى العرب » .. ثم يصمت لحظة ويخفض صوته هابطا إلى قرار الجواب متمما نداءه « البلح السيوى » ، ولا يصل النداء إلى « الحاج على » إذ يبدو منهمكا فى عد قروش أعطاها له أحد الزبائن .. فييأس منه صاحبنا ويلقى تحية أخرى أرق من الأولى وأنعم .

وتهبط التحية هذه المرة على « سنيه وروور » بائعة الفجل وقد تربعت على الرصيف بجوار « الحاج على » ، ووراء قفص رصت عليه حزم الفجل ، وبجوارها سلة ممتلئة بالليمون .

وتجيب « سنية » تحية بائع البلح قائلة بصوت ممطوط ممدود :

— مسا الخير يا جمعه .. الوراور .

ولا يبدو فى صيحتها تلك أى فاصل بين تحيتها لجمعة وندائها على الفجل الوراور ، بل هى تشبكهما بعضهما ببعض كأنما تخشى أن تضيع منها لحظة دون أن تعلن عن بضاعتها .

ويدفع جمعة عربته تجاه الرصيف فيوقفها بجوار قفص سنية ، ويبدأ الدردشة معها .

وتلتفت إلى الحانوت ، فإذا الرجل البندولى المتأرجح يمينا ويسارا .. الغارق إلى كيعانه فى السمن البلدى ، والذى لم يعد لدينا شك بعد اكتشافنا « للحاج على » أنه لابد أن يكون هو نفسه ولده على ، وقد انتهى من لف بضع فطاير وناولها إلى أحد الزبائن وصاح مبلغا الحاج على :

— أربع فطاير دوبل ، واثنين مفرد .

وفجأة وبدون سابق إنذار يلوح لنا أن حدثا خطيرا يوشك على الوقوع .. إذ نبصر « سى على » قد كف فجأة عن الاهتزاز وتوقفت حركته البندولية ، واحمر وجهه وتجهم ، وتطاير الشرر من عينيه فنفذ خلال الواجهة الزجاجية ، وعبر اللافتة التى نقشت عليها « عز من قنع .. وذل من طمع » .. واستقر على « جمعه » وقد اتكأ على عربة البلح السيوى ولف ساقا على ساق .. متخذا وضعا من أبلغ أوضاع الغزل والبصبصة .

وتمر فترة صمت قصيرة يتطلع خلالها الزبائن إلى « سى على » دهشين مما حل به ، ويثبت هو فى مكانه وقد تكأكأت الأفكار متزاحمة فى ذهنه .

ماذا يفعل ؟!!

ينطلق من الحانوت فيضرب « جمعه » ضربة بالمحساس (القضيب الحديدى الذى يقلب به الحطب فى جوف الفرن) ترديه صريعا ؟!

لقد عاد مرة أخرى إلى مغازلة « سنية » .. رغم الإنذار النهائى الذى أعطاه له عندما التقى به يتبعها فى الحارة .

ثم « سنية » نفسها ..؟ ألم يحذرها مائة مرة ويأمرها أن تصده عنها ؟ ومع

ذلك فهى تبدو مقبلة عليه ، وهى ترد له الابتسامات وتجاوبه الضحكات .

والله ليقتلنها .. وليقتلنه .. وليقتلن أباه .. ثم ليقتلن نفسه .

أجل .. إن أباه هو المسئول الأول .. فقد طلب منه أن يزوجها له ، ولكنه رفض منبئا إياه بأنها مش قد المقام ، وأن على بن الحاج على على على الفطاطرى الأصيل الحسيب النسيب ... لا يمكن أن يهوى إلى درجة الزواج من بائعة فجل !!

إن هذا ما تذرع به أبوه !! ولقد كذب العجوز فيما تذرع به .. إن المسألة ليست مسألة حسب ولا نسب ، ولكنه رفض أن يزوجه بها لأنه يريدها لنفسه ، ولولا خوفه من « أم على » .. لما تردد لحظة فى زواجها .

وإلا فما معنى حبه الفجائى للفجل ، وشرائه يوميا بقرشين أو ثلاثة قروش فجلا يذهب به إلى « أم على » ويخبرها كذبا .. أن النبى عليه الصلاة والسلام قد قال : « إن خير الأكل ما جاور الفجل » !

إن كل هذه النمر والحركات من الحاج ما كانت لتخفى على الابن العاشق .. فكم من مرة ضبطه متلبسا بالحملقة فى صدرها البارز ، وساقيها الممتلئتين ، وردفيها المكتنزتين ، وهو كثيرا ما يطلب منها أن تناوله شيئا فلا تكاد تقترب منه حتى يتحسس يديها ، ويربت على ظهرها .. مدعيا أنها « بنت غلبانة » تستحق العطف ، ولا يدرى « على » لم يخص أبوه « سنية » من دون بقية خلق الله الغلابة بالتحسيس والطبطبة .

وهكذا لم يعد يشك فى سوء نية أبيه ، وفى كذب حججه ، وبدأ يرسم الخطط ويضع المشروعات التى تمكنه من أن يفوز بـ « سنية » رغم أنف أبيه ، حتى ظهر فى الميدان خصم ثالث .. هو جمعه .

ولم يكن « سى على » فى بادىء الأمر ، ليرى فى خصمه الجديد أى نوع من أنواع الخطورة .. بل لقد كان يأبى فيما بينه وبين نفسه أن يعترف به خصما ، فما كان يراه ندا له وما كان ليتواضع حتى يقارن فطاطرى محترم مثله ينعم عليه كل

من حوله بلقب « سى » بجربوع متجول مثل جمعه . يقضى نهاره يطوى الشوارع والحوارى وراء عربة بلح .. أو عربة بطاطة أو جميز أو ترمس .. رافعا عقيرته الحميرية بـ « والوزنه بنكله يا عسل » .. أو « طلعت اجيبه ترمس لقيته لوز » .

إى والله .. إن « سى على » ما توقع من « جمعه » الكلب خطرا رغم ما كان يراه من إقباله على « سنيه » ، ورغم ما كان يتحفها به من قراطيس بضاعته .

ومع ذلك فقد بدأ الخطر يلوح أخيرا .. فقد اتضح له أن سنيه من نوع نهم ، وأن إطعام الفم .. له تأثير عليها .. أى تأثير ، وأنها من النوع الذى يستطيع أن يصل الإنسان إلى قلبه عن طريق فمه ، وأن قراطيس جمعة الملأى بالبلح والجوافة كانت أكثر سحرا من نظراته المفعمة بالحب والوله .

ولذلك فقد وجب عليه أن يوقفه عند حده بأية وسيلة .

إن استعمال القوة مع مثل هذا الحيوان طريقة غير مجدية فهو بلاشك أقوى منه وسيرديه صريعا فى أى معركة بينهما .

وبدت على وجهه علامات الخيبة ، ولكنها لم تستمر سوى ثوان معدودات ، وسرعان ما حلت محلها فرحة ظاهرة .

ما الداعى إلى استعمال العنف ؟ لم لا يحاربه بنفس سلاحه ؟ لم لا ينفذ إلى قلبها من نفس الطريق .. طريق أطعم الفم يستحى القلب ؟ . إنه لاشك أقدر فى هذا الميدان وأمضى سلاحا وأكثر عتادا .

وهكذا استقر رأيه على أن يستعمل مع « جمعه » سلاح الفطير ، وأن يغزو قلب حبيبة القلب بفطيرة متقنة الصنع ، لم يسمع عن مثلها فى عالم الفطاطرية .

ونظر إلى « جمعه » وهو يمد يده بقرطاس البلح السيوى ، ثم نظر إلى « الحاج على » وهز رأسه وتمتم فى سخرية « خير الأكل ما جاور الفجل » .. ثم صمت برهة وأردف وهو يضغط على أسنانه « الصبر طيب » ، وعاود اهتزازه مرة ثانية .

وانصرف « جمعه » بعربته ، وبعد برهة نهض الحاج على متباطئا واتجه إلى « سنيه » .. ثم عاد إلى الحانوت وهو يحمل ما يقرب من عشر حزم فجل دفع بها إلى ابنه طالبا منه أن يحملها إلى البيت بعد أن يغلق الحانوت ، وأخبره أنه سينصرف الآن لأن لديه بضعة أعمال لابد من قضائها قبل أن يعود إلى الدار .

وانصرف « الحاج على » ، ولم تكد تمضى على انصرافه بضع دقائق حتى كان « سى على » قد صرف الزبائن وأغلق الحانوت ثم سار إلى « سنية » وقد حمل فى يده لفافة كبيرة دسها فى حجرها وهمس فى أذنها ببضع كلمات فأجابت « حاضر » وبدأ يتحرك مترنح الأعطاف وقد ملأه شعور بالانتصار .

لقد كسبت فطيرته المعركة .. إن « سنية » ستلقاه بعد بضع لحظات .. عند الخرابة المجاورة للأبوة .

ليهب لها « جمعه » كل بلحه ، وليشتر أبوه كل ما لديها من فجل .. فلن يضيره كل ذاك .

لقد كسب الجولة الأخيرة .

ووصل « سى على » إلى الخرابة ، وسار يتحسس طريقه فى الظلمة حتى بلغ حجرا بجوار سورها فاتخذ مجلسه عليه ، ومضت لحظة قبل أن يتغلب على اضطرابه ويتمالك أنفاسه ويعوّد عينيه ظلمة المكان .. ثم أخذ يدور ببصره حوله ، وينصت جيدا .

كانت الخرابة ساكنة موحشة ، لا يسمع فيها غير مواء القطط المتجولة حول أكوام القمامات ، ولا يبدو منها غير بريق أعينها عن بعد عندما تنعكس عليه أضواء مصابيح الحارة .

وكانت الخرابة تحد من ناحية بسور مهدم يطل على الحارة ومن النواحى الثلاث الأخرى بالجدر الخلفية للدور المحيطة بها ، وقد قامت فى الظلمة كأنها أشباح توشك أن تنقض وبدت من خلال نوافذها المطلة على المناور أضواء خافتة شاحبة .

وأحس « على » رهبة شديدة وود لو استطاع الفرار فقد كانت المغامرة شديدة الوطأة على أعصابه ، وكانت طبيعته اللينة الهادئة أجبن من أن تحتمل مثل هذه الخلوة الموحشة .

ولكنه لم يغادر مجلسه ، واستمر يجثم فوق الحجر ، وحاول أن يسرى عن نفسه مشجعا إياها بما ينتظرها من لقاء ممتع ، مستعيدا فى ذهنه منظر « سنية » بسيقانها الممتلئة ، وأفخاذها البضة ، وصدرها المكتنز ، والمنديل أبو أويه معصوب على أحد حاجبيها .

كل هذا سيضحى بين يديه بعد لحظات .

ولكن ماذا يستطيع أن يفعل بها ؟

ألا يخشى أن يضبطه أحد فى الخرابة وهو متلبس معها ؟

لا .. لا .

إن الطريق ساكن ، ولا أحد يفكر فى أن يطرق الخرابة فى هذه الساعة من الليل ، اللهم إلا مخلوقا واحدا ، وهو محروس الزبال .. الذى يأوى فى عشته المبنية من الصفائح فى ركن الخرابة .

ولكن محروس ليس هو المخلوق الوحيد الذى يخشى منه أحد فهو والقطط والكلاب سواء بسواء .

أجل .. إنه حيوان هائم ضال .. معتوه أبله . لا يكاد يحس ولا يبصر ولا يسمع ولا يفهم ، ومن الغباء أن يخشى منه على نفسه .

وهكذا اطمأن « سى على » ، وهدأت نفسه بعض الشىء وبدأ يتصور ماذا يمكن أن يفعله بـ « سنية » فى هذه الخلوة .

يحتضنها ويقبلها ؟

لا .. لا .. ليس هكذا مرة واحدة .

يجب أن يبدأ فى مناجاتها وتدليلها ، وشرح حبه ولوعته .

أتراها ستفهم ؟

لتفهم أو لا تفهم .. إنه يحس برغبة جارفة فى أن يفرغ ما بنفسه .

وبعد ذلك .. ماذا يفعل ؟

يبدأ بالتحسيس عليها .

أجل ! التحسيس .. فلشد ما يحس برغبة جارفة فى مس ذراعها وصدرها و .. و ..

وشيئا آخر يتوق إلى لمسه ، وهو باطن فخذها الذى يلوح له دائما من وراء الزجاج كلما حركت ساقها يمنة أو يسرة .

وبعد ؟!! ماذا يفعل بعد ذلك ؟

يبدأ فى تقبيلها واحتضانها .

ولكن أتراها تسلم له ؟ ولم لا !! ألم يعطها فطيرة .. لم يصنع مثلها لأحد فى حياته ؟

وبعد التقبيل والأحضان ؟!

ينام معها ؟. ولكن أين ؟

إن أرض الخرابة ملأى بالحجارة والزجاج المكسور ، ومن الجنون أن يحاول الرقود على أرضها .

فأين سينامان إذا ؟

ليته أحضر معه سجادة أو حصيرة .

وأخذ يقدح زناد فكره .. عله يجد مكانا يرقدان فيه سويا .

وأخيرا ، وجده .

إنه المأوى الوحيد الذى يستطيع استعماله .

حقيقة إنه لابد وأن يكون بالغا فى القذارة ، ولكن لاشك أن به فراشا ممهدا ، متواريا عن الأعين .

أجل .. ليس أمامه سوى عشة محروس .

إن الرجل يبدو أنه لم يأو بعد إلى عشته ، وحتى لو كان هناك فإنه يستطيع أن

يغمزه بنصف فرنك ليخلى له العشة ، ويقف له حارسا على باب الخرابة .

الحمد لله .. فرجت !

إن عليه أن يسحب « سنية » عندما تحضر ويقودها إلى عشة محروس وهناك يستطيع أن يفعل ما يشاء .

وما دامت العشة تسترها ، فلم لا ينزع عنها ملابسها ؟ »

أجل .. لم لا يجلسها أمامه عارية ملط ؟!.

وأحس بنشوة شديدة ، وبدأ يتصورها أمامه عارية وأخذ يفحص جسدها قطعة قطعة .

صدرها كيف سيبصره ؟ وبطنها ، وظهرها ، وفخذها ، حقا إنها ستكون ليلة حمراء ، ما كان يحلم بها قط .

ترى هل يخلع ملابسه هو أيضا ؟ لا . إنه يخجل فما بدا من قبل عاريا أمام أحد .

ولكن هل هناك مصباح فى العشة ، أو على الأقل شمعة ليبصر عليها محاسن « سنية » ؟

هل يفكر حيوان مثل محروس فى أن يضع فى عشته نورا !. لا يظن !!

على أية حال يجب أن ينهض للأطمئنان ولتجهيز العشة .

ولكن هبها حضرت الآن و لم تجده ؟ لا .. لا .. يجب أن يبقى فى موضعه .. لا يفارقه حتى تحضر .

إنها لابد آتية فى خلال دقائق .. فما يظنها تتأخر أكثر من ذلك .

إنه يسمع وقع أقدام تطرق أرض الحارة .

إنها هى .

أجل .. أجل .. لابد أنها قد أتت .. إنه يستطيع أن يميز وقع أقدامها .

وبعد برهة خيل إليه أنه يلمح فى الظلام شبحا يتحرك فنهض من مجلسه وأخذ يقترب منه رويدا رويدا ، وقد تملكه اضطراب شديد .

ووصل إلى الشبح ، ومد رقبته وحملق فيه جيدا ، ثم ندت منه صرخة دهش ... لقد كان أباه !!

و لم يكن لدى الاثنين فرصة لعتاب ، أو نقاش ، أو عراك ، فقد أبصر شبحا آخر يقترب .

إنه بلاشك سنية !!

ويح الفتاة الخبيثة .. لقد غررت بكليهما ، وأعطتهما موعدا واحدا ، ومنحتهما لقاء مشتركا .. يا للحرج .

ووصل الشبح .. فندت عن الرجلين وعن الشبح صرخة عجب مضاعفة .

لقد كان الشبح هو جمعه !!

و لم ينبس الثلاثة ببنت شفة ..

وغادر كل منهم الخرابة حتى بلا خفى حنين .

***

و لم يكن الثلاثة آخر من شاهدتهم الخرابة تلك الليلة . إذ لم يكد يخلو مسرحها منهم حتى بدت « سنية » بعد أن وثقت من ذهابهم .

وفى ركن من أركان الخرابة جلست « سنية » بجوار « محروس » الزبال ، رب الخرابة وساكنها ، وسلمت له الفطيرة ، والبلح ، وثمن الفجل ، ثم ارتمت فى أحضانه .

وهكذا حواء ، تأخذ من الجميع ، ولكنها لا تهب إلا لمن تحب ، حتى ولو كان زبالا فى خرابة .

ترى ، هل تختلف حواء « حارة السيدة » كثيرا عن حواء الزمالك ، والمعادى ، وجاردن سيتى ؟!!

فى زين العابدين

ما يكاد ينتهى من تأدية الواجب المقدس حتى يبدأ فى جس عضلاته ومراقبتها فى المرآة المشروخة التى نقلها ضمن العفش الذى أحضره من البلد لتأثيث الحجرة التى استأجرها فى زين العابدين منذ أن حضر إلى القاهرة للدراسة الثانوية .

دكش .. ومشكال هما بطلا القصة .. يتقاسمان البطولة فيها ، بالعدل والقسطاس ، ولو أخذنا كلا منهما على حدة ، لوجدنا منه مخلوقا عاديا لا نستطيع أن نخلق منه قصة أو نصنع حدوته ولكنهما على بعضهما يكونان مزيجا طريفا ، ويركبان مخلوطا يمكن أن يصنع منه عشرات القصص .

هما صديقان حميمان لا يكاد يفترق أحدهما عن الآخر لحظة ، يبدوان فى المدرسة كأنهما أخوان ، لا من حيث الشبه ، بل من حيث الوفاء والحب والإخلاص .

أقول « لا من حيث الشبه » بلهجة جازمة أكيدة فليس هناك أدنى شبه بينهما ، لا شكلا ولا موضوعا ، فهما مخلوقان متناقضان كل التناقض ، متباينان كل التباين ، ومع ذلك فقد كان بينهما من الانسجام والتلازم والصداقة ما جعلهما مضرب الأمثال ، وما جعل اسم أحدهما لا ينطق إلا مقرونا بالآخر ، كلوريل وهاردى ، أو مشكاح وريمة .

وكان أول ظهورهما على مسرحِ الحوادث والشهرة ، كطالبين فى سنة

ثالثة أول بمدرسة وادى النيل فى ميدان السيدة وأغلب الظن أن اسميهما الأصليين لم يكونا دكش ومشكال بل كانا اسمين عاديين مما يطلق على بقية خلق الله من التلاميذ مثل « محمد على أحمد » أو « إبراهيم زكى » . أو أى شىء من هذا القبيل . ولكن هذه الأسماء أهملت ونسيت وانقرضت على مر الأيام ، وحل محلها هذان الاسمان اللذان يمثلانهما أصدق تمثيل معنى ومبنى .

ويبدو لى أن من الخير ، قبل البداية فى القصة أن أبدأ بوصف كل منهما بدقة ، وأن أعرضهما عرضا أمينا مفصلا ، بل إنه ليخيل لى أن مجرد عرضهما كما هما ، قد يغنينى عن القصة نفسها ويوفر على مشقة الحبك والتأليف .

لنبدأ بـ « دكش » بدال مضمومة وكاف ساكنة ؛ فنجده تماما كما توحى إلينا الكلمة جسد ضخم وعنق غليظ ووجه مكلبظ غليظ الشفتين ، أفلج الأسنان ، عريض الأنف ، كثيف الحواجب ، ثخين الجلد ، بادى المسام ، أشعث الشعر ، كبير الرأس فارغه .

أجل ؛ لم يكن هناك شك فى أنه فارغ الرأس ، خاوى الذهن ؛ أو لو فرض أن هناك شيئا فى رأسه ، فقد كان شيئا عاطلا متبلدا ، علاه الصدأ أو أصابه العطب ، و لم يعد هناك أمل فى أن يعاود العمل والتحرك .

وهكذا كان دكش ، بسطة فى الجسد ، وقلة فى الذهن ، بقدر ما أفرطت الطبيعة فى خلق بدنه ، وبخلت عليه فى تكوين عقله .

على أن هذا لم يضره فى شىء بل إنه لم يحس قط بأن فى الحياة ما يستدعى تحريك الذهن ، أو يوجب التفكير ، و لم يحاول مرة واحدة أن يرهق رأسه فى تعليل أمر ، بل كان يأخذ كل الأمور على علاتها ، بلا بحث ولا فحص ، لا يسأل عن سبب ، ولا يستقصى عن علة ، ولا يستبق نتيجة ، ولا يحل لغزا أو يفك عقدة ، بل يمر بالحوادث ، وهو مجرد مشاهد ، مغمض الذهن ، عاطل التفكير .

وهكذا خلت حياته من كل غاية ، و لم تعد له فيها أية رغبة ، إلا رغبة واحدة

هى تنمية ذلك الشيء الذى أغدقته الطبيعة عليه والاستزادة فى تضخيمه وتقويته . لقد أحس أن موهبته فى جسده ؛ فصمم على أن ينمى هذه الموهبة !
كان مؤنسه فى الحياة — غير مشكال — دمبلز ، وجلة حديد ، يقضى الساعات الطوال ، مختليا بهما ، يتبادلهما الواحد بعد الآخر ، ممعنا فى تحريكهما إلى مختلف الاتجاهات ، مئات المرات ، وهو مقطب الوجه عابسه ، كأنما هو مكلف تأدية واجب يتوقف عليه مصير البشر . فلا يكاد ينتهى من تأدية الواجب المقدس حتى يبدأ فى جس عضلاته ، ومراقبتها فى المرآة المشروخة التى نقلها ضمن العفش الذى أحضره من البلد لتأثيث الحجرة التى استأجرها فى « زين العابدين » منذ انتقاله إلى القاهرة للدراسة الثانوية .

ويمر الوقت بصاحبنا وهو يمتع بجس عضلاته واختبار المجانس والترابيس ، وقياس الأفانبرا وتلعيب الأذرع !

ولم تكن حياة « الدكش » لتزيد عن هذا ، نوم وأكل ، ولعب حديد ، وجس عضلات ، وما كانت له بغية قط أكثر من هذا ، بل ما حاول أن يفكر أن فى الحياة شيئا سوى هذا ! وكان قريرا راضيا مستريحا يضحك لأتفه نكتة ولأبسط سب ؛ كان — بالاختصار — جسدا بلا ذهن !

أما مشكال ، فقد كان على النقيض ذهنا بلا جسد ، أو جسدا نحيلا ضئيلا كعدمه .

وكانت تسميته « مشكال » أعرق كثيرا من تسمية « دكش » فقد كان نعتا خلعه عليه أبوه منذ نعومة أظفاره بعد أن أثبت جدارة فى جر الشكل وفى خلق المشاكل .

كان نبيها ، ما فى ذلك شك ؛ ولكن نباهته لم تتجه إلى خير قط ؛ فما حاول أن يستعمل ذكاءه فى صالح له أو لغيره وكان مثلا لإنسان حاضر الذهن ، ولكن فى رد النكتة ، وفى سب الناس والضحك عليهم ومنهم .

كان من يومه إنسانا لا يخجل ، يلقى بالنكتة ولو على نفسه ، أو على أبيه

وأمه ، يلقى بها حتى ولو عرف أنها ستؤدى به إلى التهلكة ، يلقى بها ورزقه — كما يقول — على الله .

ولا يذكر أبوه أنه استراح يوما من مشاكله ، ولا يذكر أنه عاد إلى الدار يوما غير مكسور ولا مبطوح ؛ فإذا عاد سليما ، فلا بد أن يكون قد خلف وراءه مبطوحا أو مكسورا .

لقد بدأ جلائل أعماله الشيطانية وهو ما يزال يحبو على أربع ، عندما سكب — بقصد أو بغير قصد ، الله أعلم — زجاجة الحبر فى عمامة أبيه ، وانتهى أبوه من ارتداء ملابسه ثم خطف العمامة ووضعها فوق رأسه ليغرق فى طوفان من الحبر ، ويظل طول يومه يدعك وجهه حتى سلخ جلده .

ولم يكد ، يشد حيله ، ويقف على ساقيه ، حتى أصابته هواية قذف الحاجات من الشباك على رؤوس المارة ليصيب عصفورين بحجر . فيفقد أهله ما خف وزنه وغلا ثمنه ، وفى نفس الوقت ، يبطح بها رؤوس المارة ، لقد كان آية فى الذكاء .. الذكاء الشيطانى .

ثم بدأ بعد ذلك فى إطلاق سراح حيوانات الدار .. فخرج ذات يوم ممتطيا صهوة ديك رومى — انهمكت أمه فى تسمينه أربعة أشهر ، لأجل ذبحه فى عاشوراء — وظل يتنزه به فى الحوارى ، وفى النهاية عاد من غيره .

وتوالت حوادثه بعد ذلك مع ما تبقى من الحاشية . فوضع مائة كتكوت فى قدرة ، فماتت خنقا ، ثم قذف أوزة من فوق السطوح فدق عنقها .

واستمرت مغامراته مع الدواجن حتى خلا منها السطح .

أما حوادث التوهان فحدث عنها ولا حرج . فله فى كل أسبوع يوم يتسلمه أبوه من قسم السيدة بعد أن تحفى قدماه فى البحث عنه ، وبعد أن تبكيه أمه من كل عين حفان .

وشغف فى إحدى فترات طفولته بإحضار وابور الحريقة وعربات الإسعاف فى حيهم بلا أدنى سبب . فقد كان إذا لم يجد شيئا يتسلى به ينطلق فى الحارة صارخا

مولولا معلنا بأعلى صوته أن حريقا شب فى وابور الطحين .. أو فى العربخانة ، أو أن سقف بيت « الحاج على » سقط ، أو أن « أم أحمد » وقعت من فوق السطوح ، وينطلق معه السذج من أهل الحى فى الصياح والصراخ حتى يتطوع عاقل من بينهم لطلب نجدة المطافئ أو الإسعاف وبعدها يختفى مشكال فلا تقع عليه عين ! .

أبعد كل هذا لا يسمى مشكالا ؟

ولقد بدأت عبقريته تتجلى عندما دخل مدرسة وادى النيل ، وأضحى طالبَ ثانوى ، وخاصة عندما التقى بـ « دكش » وبدأت أواصر الصداقة تتوثق بينهما .

كان مشكال دائم التورط فى المعارك ، لا تفتأ شقاوته تلقى به بين آن وآخر فى الخناقات ، ورغم أنه كان كثيرا ما يستطيع التغلب على خصومه بالتهديد والغلبة فقد كان من مزاياه أنه أكبر غلباوى عرفه شارع زين العابدين ومدرسة وادى النيل — إلا أنه فى بعض الأحيان تخذله الغلبة ، ولا تخدع خصومه .. فينتهى به الأمر إلى الدخول فعلا فى معركة .. فتكون النتيجة وبالا عليه .

وعلى هذا فقد وجد « مشكال » فى « دكش » أكبر عون له ، عون قوى مطواع فى جسده سطوة ، وفى ذهنه كلال . يستطيع أن يستعين به إذا ما أزفت الآزفة . ولم يفد فى رد غائلة الخصوم ذكاء ولا نبوغ ، وعندما تضحى الغلبة للقوة عندئذ يصبح استعمال « الدكش » مستحبا ومفيدا .

كان « دكش » بالنسبة لـ « مشكال » كأنه شومة ، تطيح برأس الخصوم دون أن تسأل عن السبب .

ومتى كان « دكش » يسأل عن السبب ، أى سبب لأى شيء ؟

كان يكفى أن يذهب مشكال ليقول لدكش ببساطة :

— دكش .

— فيه إيه ؟.

ــ النهارده حانضرب تالته رابع .

كان يكفى أن يدور بينهما هذا الحديث ، حتى ينتهى اليوم بضرب ثالثة رابع ــ أو على التحديد فتوات ثالثة رابع ــ علقة تظل المدرسة تتحدث بها طول العام .

لم يكن « دكش » يناقش « مشكالا » قط ، ولا كان يسأله لم يريد ضرب ثالثة رابع بالذات وماذا فعلوا به ، وماذا يريد منهم ، وما فائدته هو ؟. لم يكن يخطر بباله قط أن يسأل عن هذا . فقد كان فى ذلك إجهاد لذهنه وإرهاق لتفكيره . لقد كان أسهل عليه جدا ، أن يذهب لضرب ثالثة رابع .. ثم يرفت بعد ذلك أسبوعا ، من أن يرهق ذهنه فى البحث عن الإجابة عن كل هذه الأسئلة .

تلك كانت الفائدة التى يجنبها مشكال من دكش .

ترى ماذا كانت فائدة دكش من مشكال .؟

كان له فيه فوائد جمة ، أولها تلك الخناقات التى كان يسوقها إليه ، جاهزة ، ناضجة ، دون أن يتعب فى خلقها ، أو تحضيرها ، بل ينذب فيها ، ليجرب فيها قوته ويمرن عضلاته .

كان دكش قويا ، وكان يحب الخناق ، ولكنه كان أجهل وأكسل من أن يثيره .. لقد كان أعجز من أن يخلق عداوة أو يتسبب فى معركة ، فكان يسره أن مشكالا يقدم هذا إليه بلا تعب ولا جهد .

أما الفائدة الثانية ، فسلامته من لسان مشكال ، واتقاؤه لقلة أدبه وسفالته ، وتشنيعه ، وضمانة لاحترامه بين الزملاء ، فلم يكن هناك أقدر من مشكال على إضاعة المركز والتهزئ .

أما الفائدة الثالثة ، فالضحك والتسلية التى كان يجنبها من وراء مشكال ؛ فقد كان مشكال ابن نكتة ، وكان دكش من ذوى الفشش العائمة الذين يضحكون لأقل سبب .

وهكذا توطدت الصداقة بين الطرفين ، واستمر مشكال يخلق المشاكل ، ودكش يتلقى مصائبها .

حدث أن تراءى لمشكال أن يعبث بمدرس العربية ، فربط جرسا صغيرا فى فتلة زر الطربوش من الداخل بحيث أضحى الجرس مختفيا داخل الطربوش ، وبحيث كانت أقل هزة من رأس مشكال كافية لرن الجرس .

وبدأ الشيخ عجة (كما كانوا يطلقون عليه بلا أى سبب) شرحه للحال والبدل ، وبدأ مشكال يهز رأسه إعجابا بشرح الشيخ .. ويلتفت الشيخ محنقا إلى التلاميذ ، ويصيح مهددا :

ـــ انت يا واد انت ياللى بترن الجرس .. اسكت أحسن لك .

ويهز مشكال رأسه متأسفا على سفالة التلاميذ الذين يحاولون إضاعة الدرس وحرمانه من الفائدة التى سيجنيها من شرح الشيخ عجة ، وفى كل هزة أسف رنة جرس .

ويصيح الشيخ عجة :

ـــ يا واد اسكت أحسن لك .

ويستمر مشكال فى هزة رأسه آسفا على عناد التلاميذ .

وينفجر الشيخ عجة :

ـــ انت يا واد يا مشكال ، قوم أقف ، مفيش حد يعمل أمور السفالة والشيطنة دى غيرك !.

وينفعل مشكال ويقف غاضبا ثم يفرد يديه أمامه حتى يرى الشيخ عجة أنهما فارغتان وأنه ليس بهما جرس ، ويقول الشيخ عجة فى لهجة المعتذر :

ـــ مش انت اللى بترن الجرس !

ولا يجيب مشكال بلسانه بل إنه يهز رأسه بشدة نافيا التهمة ، فينطلق رنين الجرس .

ويدهش الشيخ عجة ، ويتلفت بين التلاميذ باحثا ، ويقع بصره على دكش

وهو يبتسم فى بلاهة فيندفع فيه صارخا :

ـــ مافيش غيرك انت يا حيوان يا حلوف ، اطلع بره أنا لازم اوريك .

ويخرج دكش ببساطة وفى سكون ، دون أن يناقش ، ودون أن يسأله عن السبب ، ليس هناك أى داع للتعب ، إن الخروج أكثر راحة .

واستمرت العلاقة بينهما .. يحصد الدكش ما يزرع مشكال ، حتى حل عام دراسى جديد والتقى الاثنان فى المندرة التى يقطن فيها دكش ، قبل الذهاب إلى المدرسة .

ووقف دكش يقوم بتمرينات الجلة التى تعود أن يقوم بها ، وهتف به مشكال فجأة وهو منهمك فى التمرين :

ـــ وله يا دكش .. انت دفعت المصاريف ؟

ـــ لسه .

ـــ معاك كام ؟

ـــ معايا عشره جنيه جايبهم من البلد .

ـــ كويسين ، وأنا معايا خمسه يبقوا خمستاشر .

ـــ وجمعتهم ليه ؟

ـــ قلت لى ليه ، ادينى عقلك كويس ، حاكم انت غبى ما بتفهمش.. من أول مرة .

ـــ قول .

ـــ انت عجباك المدرسة ؟

ـــ أبدا .

ـــ يعنى مهم أوى انك تروح وتتعلم ؟

ـــ أبدا . أبدا .

ـــ خلاص .. فرجت .

ـــ يعنى إيه ؟

— يعنى مش حانروح المدرسة .
— أمال حانعمل إيه ؟
— حانفتح قهوة .
— قهوة ؟. احنا نفتح قهوة ؟
— صعب ؟. فيها إيه دى . المعلم دقدق صاحب القهوة اللى ع ناصية درب البهلوان بيفلس وعاوز يبيع قهوته ، ندیله الخمستاشر جنيه ، ونشترى منه القهوة ، مش احسن من المدرسة ؟
— ودى يلزمها إيه ؟
— ولا حاجه أبدا . إيدك على العشره جنيه ، وخلى الباقى على الله وعلى .

ولم يمض اليوم حتى كانا قد ابتاعا قهوة دقدق ورفعا اللافتة القديمة ووضعا مكانها لافتة جديدة كتب عليها « قهوة الأبطال لصاحبيها دكش ومشكال » .

ومرت الأيام وقد طلقا الدراسة والمدرسة ، واتخذا مكانهما فى القهوة : مشكال على الكيس ، ودكش يطوف بالزبائن .

واستمر مشكال يخرج من البيت صباحا على أنه ذاهب للمدرسة ثم يقضى طيلة يومه فى القهوة ويعود آخر النهار إلى البيت حتى علم أبوه فحلت الكارثة .

وضرب مشكال ضربا مبرحا وهدده أبوه بالطرد من البيت إن لم يرتدع ويعود إلى المدرسة .

وهكذا عاد مشكال وحده إلى المدرسة ، وكانت هذه المرة مدرسة الإسماعيلية حيث خجل أن يعود إلى وادى النيل تلميذا حقيرا .. بعد أن عرف الجميع أنه قد أصبح صاحب مقهى على سن ورمح .

وبقى دكش فى القهوة وحيدا . واستمر مشكال فى مشاكله بالمدرسة دون أن يتحمل أحد عنه العبء ، حتى كان ذات يوم طرده ناظر المدرسة ، وأنبأه بألا يعود إلا ومعه ولى أمره .

وسقط فى يد مشكال .. فقد كان من العسير عليه أن ينبىء أباه بأنه قد أثار مشاكل جديدة .. وأنهم لن يقبلوه إلا إذا ذهب معه .

وفكر مشكال برهة .. ثم خطر بباله فكرة .. وجد فيها خير حل لمشكلته .

إن دكش هو الذى يستطيع إنقاذه .. كما تعود إنقاذه دائما .. وذهب مشكال إلى دكش فى القهوة فى زين العابدين .. ورحب به دكش أيما ترحيب .. وصمت مشكال برهة ، ثم قال :

— دكش ..

— فيه إيه .. ؟

— عايزك تعمل ولى أمرى .

واستعصى على دكش فهم المسألة ، وبدا كأنه يريد أن يسأل عن السبب .. ولكنه .. لم يجد مبررا لإجهاد ذهنه فى التفكير أو السؤال .. ونهض لتوه مصطحبا مشكال .

وذهب مشكال إلى المدرسة وفى صحبته دكش .. وكان مشكال يحس أن المسألة فرجت .. فليس على دكش إلا أن يستمع لشكوى الناظر ، ثم ينصرف بسلام .

ودلف من باب المدرسة ، بعد أن أنبأ مشكال البواب بأن خاله يريد الدخول إلى البيه الناظر .

ودخل مشكال ودكش حجرة الناظر ، وقد بدا على مشكال الذل والمسكنة .. وسار وراء دكش الطويل الجسد العريض الاكتاف المنتفخ الأوداج .

وسلم دكش على الناظر وألقى عليه الناظر نظرة فاحصة متشككة وسأله :

— حضرتك ولى أمر الطالب ده ؟

— أيوه .. أنا خاله ..

وفكر الناظر برهة ، ثم هز رأسه فى أسف وقال :

— الولد ده سافل ومش متربى ...

ولم يجب دكش أو لم يعرف كيف يجيب ، ولم يرد أن يتعب نفسه فى التفكير والإجابة .

واستمر الناظر فى قوله :

ـــ أنا مش ممكن اقبله إلا إذا رقعته علقه بنفسك دلوقت علشان يتربى ، وعلشان يحرم .

وأحس مشكال بقشعريرة تسرى فى جسده ، ونظر إلى دكش نظـرة استعطاف .

وتنهد دكش تنهيدة راحة فقد أحس كأنه كان يجتاز امتحانا عسيرا .. وأنه قد وجد فى الامتحان السؤال الذى يستطيع الإجابة عليه .

الحمد لله .. إن البيه الناظر لم يطلب منه أمرا عسيرا .. الحمد لله إنه لم يطلب منه أمرا يستدعى التفكير .

إن كل ما يطلب منه .. هو ضرب مشكال علقة .. لا .. بسيطة .. وهل هناك أبسط من ضرب مشكال .

وبلا أقل تفكير .. مد دكش يده .. فقبض على عنق مشكال .. وطرحه أرضا ...

وعينك ما تشوف الا النور !

لقد لهف مشكال علقة لم يذق مثلها فى حياته قط !

لقد كان دكش يضرب بمنتهى الإخلاص .. أولا لأنه يعرف أن مستقبل صاحبه يتوقف على هذه العلقة .. وثانيا لأنه أمضى خمس سنوات يضرب الناس من أجل مشكال .. أما فى هذه المرة فقد استطاع أن يضرب مشكال نفسه .. من أجل مشكال .

وعلا صراخ مشكال وهو يعوى كالكلب ، ويستغيث بحضرة الناظر .. ولم يتخلص من بين براثنه .. إلا بعد أن تعاون خمسة من الفراشين على أن يحولوا بينه وبين دكش .

ومنذ ذلك اليوم ، استقام مشكال ، وانصلح أمره ، ولم يحاول قط أن يستعين بدكش فى حل أمر من أموره .. قائلا : « عدو عاقل .. خير من صديق جاهل » .؟

فى الخليج المصرى

كان التنظيم فى هذه المرة هو سبب كارثة « عم شلاطة » ، فقد تقرر توسيع شارع الخليج المصرى ووصله بدرب الجماميز بهدم ما بينهما من دور .. وكان بيت العنتيل أحد هذه البيوت .

أعرفه منذ خمسة وعشرين عاما .. عندما كان يطوف بشارع السيدة وأزقتها .. دافعا أمامه عربته الصغيرة المحملة بالقباقيب .

وهكذا كان عمله فى ماضيه المجيد : بائع قباقيب متجول . وكان دائما ينتهى به المطاف إلى حجر بجوار « بيت العنتيل » بشارع الخليج ، حيث يستقر على الحجر ويأخذ فى إصلاح القباقيب ودق السيور .

ولَست أدرى ما الذى دعا الرجل إلى أن يهجر مهنته المحترمة ، وهو الفنان الملهم ، الذى طالما تفنن فى صنع القباقيب ، وتركيب الجلاجل الملونة .. ورسم النقوش وحفرها .. والسمو بصناعة القباقيب إلى مستوى رفيع .

كل ما أعرفه هو أننا فوجئنا ذات يوم بـ « عم شلاطه » ، وقد تربع على دكة خشبية أمام بوابة « بيت العنتيل » وهو يحتسى القهوة من وعاء صنع من قشرة جوز الهند ، وأخذ يسبل عينيه فى كل رشفة وقد بدت عليه أبلغ آيات الهناء .

و لم نعلم بجلية الأمر إلا عندما وقفت أمامه « سيدة العرجاء » الخادمة تسأله أن يصلح قبقابها ، فرفع كتفيه وقلب شفتيه وأجابها بترفع وكبرياء :

ـــ كان زمان وجبر .

ــ ليه بقى ؟ حطوا على راسك ريشه ؟

ــ خلاص يا ستى .. ربنا تاب علينا من القباقيب .. وأصحاب القباقيب .. بقينا من كبار الموظفين .

ــ موظفين مين يا ادلعدى ؟ انت نسيت « القباقيب العمولة القباقيب » ؟

ــ نسيتهم قوى ، أنا بقيت الحارس العام على أبواب بيت العنتيل .. رجل ذو مركز .. وذو دكة أتربع عليها وأنام وأشخر .. مالى أنا ومال اللف فى الحوارى ونبح الصوت ومناكفة الزبائن « يا عم شلاطه صلح لى السير ده » ، « يا عم شلاطه ادينى فرده » .. دول زبائن آخر زمن .. الله يرحم زمان .. أيام ما كانت الدنيا دنيا .. كنت ادور على ميضة السيدة ألم القباقيب اللى فيها ، واخدهم وش بالفارة ووش بالصنفرة وتانى يوم أبيعهم على أنهم جداد .. دلوقت خلاص بطلوا القباقيب ، ما بقاش غير البراطيش .. الحمد لله ربنا تاب علينا .

وهكذا علمنا أن « عم شلاطه » قد طلق صنعته ثلاثا ، وانتهى به الأمر إلى أن يعمل بوابا .. أو على حد قوله أصبح حارسا عاما لأبواب بيت العنتيل .

وبيت العنتيل هو أكبر بيوت الحى ، وأكثرها رحابة ، وأعرقها نسبا .. بيت من البيوت القديمة الضخمة ، ذات العمد والمشربيات والسراديب ، التى تحاط بهالة من الغموض والأسرار .. ويأبى المرجفون إلا أن يجعلوها مأوى للجن والعفاريت .

واستقر المقام بـ « عم شلاطه » فى البيت المسكون فى مندرة بالدور السفلى .. فقد كان البيت خاليا من السكان .. إذ رحل عنه آخر سكانه من أهل العنتيل لتشاؤمهم من البيت بعد توالى النكبات عليهم .. ووكلوا أمره إلى « عم شلاطه » معلنين عن رغبتهم فى إيجاره .

ومرت السنون دون أن يتقدم إلى البيت مستأجر .. و « عم شلاطه » قابع فى مندرته بالبيت .. ويبدو أن الرجل قد استمرأ المرعى واستخصب المرتع .. فقد أخذ يمعن فى ترويج الشائعات عن الجن الذى يسكن البيت .. ويروى عنهم

الأقاصيص المحبوكة الأطراف .. الجيدة السبك .

وهكذا تعاقبت الأعوام على البيت الخرب .. وهو مستمر فى خرابه ، لا يسكنه سوى عم شلاطه وأصحابه من الجن ، ولم يعد هناك أمل لأصحابه فى بيعه أو إيجاره أو سكناه .. وانتهى به الأمر إلى أن أضحى وقفا على عم شلاطه ، وبات كل منهما جزءا متمما للآخر .

ولقد وشك البيت ذات مرة أن يباع .. وكان مشتريه رجلا مثريا رغب فى ابتياعه لهدمه والانتفاع بأرضه ، لكى يشيد عليها عمارة كبيرة .. ولكن الرجل مات فى اليوم الذى كان ينوى أن يكتب العقد فيه .. وبقى البيت كما هو ، ولم يعد هناك أمل بعد هذا فى أن يقدم أحد على شرائه أو سكناه أو حتى الاقتراب منه .

وأصبح البيت محصنا ضد الدخلاء من سكان ومشترين ، ولم يعد أحد من أهل الحى يتصور قط أن هناك قوة تستطيع أن تبدل حال البيت أو تبعد عنه عم شلاطه .. حتى جاء يوم خيب ظننا جميعا ، وعلمنا أن البيت قد حلت نهايته .

كان التنظيم فى هذه المرة هو سبب كارثة عم شلاطه .. فقد تقرر توسيع شارع الخليج ووصله بدرب الجماميز بهدم ما بينهما من دور ، وكان بيت العنتيل أحد هذه البيوت .

ولم تستطع شائعات الجن أن توقف فعل التنظيم ، ولم تجد محاولات عم شلاطه فى منع الهدم نفعا .. وطلع علينا الصباح ذات يوم فإذا بالمعاول تقوم بواجبها فى إزالة بيت العنتيل ، الطويل العمر العريق النسب ، من على وجه الأرض ، وبعد أيام أضحى البيت الكبير أطلالا وأنقاضا ، وأضحى عم شلاطه على قارعة الطريق بلا مأوى ولا عمل .

ولم يحاول الرجل أن يعود مرة أخرى إلى صناعة القباقيب ، بعد أن تقدم به العمر ، فبات من العسير عليه أن يجول بعربته بين الأزقة والحارات ، كما كان يفعل فيما مضى .

وانتهى الأمر بصاحبنا إلى أن يستقر فى بقعة من الأرض الفضاء مكان البيت

المهدوم ، ويصنع لنفسه كوخا صغيرا وصندوقا لبيع الكازوزة من خشب الأنقاض .. واتخذ من الكوخ مأوى ومن صندوق الكازوزة متجرا .

ولم يحاول أحد أن يحرم الرجل مأواه ، أو يمنعه من الاستقرار حيث شاء .. فقد كان مخلوقا حلو الفكاهة .. لطيف المعشر .. ولقد جعله هدم البيت ، وبقاؤه بلا مأوى موضع عطف أهل الحى فأقبلوا على مساعدته .. وعرض عليه البعض إيواءه أو تشغيله ، ولكنه أبى أن يهجر موطنه .

وكثيرا ما كان يحلو لى أن أمر بالرجل وأقف عنده برهة لأتناول منه زجاجة كازوزة ، وأتحدث معه قليلا وأسمع منه آخر الأنباء والأقاصيص .

وذات يوم مررت به ، فإذا به قد جلس على حجر أمام الصندوق ، وانهمك فى نشر قطع خشبية ومسحها بالفارة .

وقلت متسائلا :

— دا إيه ده يا عم شلاطه ؟

— قبقاب .

— يموت الزمار وصباعه بيلعب .. برضك ما تسلاش القباقيب .

— أعمل إيه ؟ مجبور يا سيدى .. الله يلعن أبو اللى كان السبب .

وحاولت أن أسأله عن (اللى كان السبب) ولكنه هز رأسه وقلب شفتيه .

وفى اليوم التالى وجدته ما زال يدق بالقبقاب فسألته :

— لسه ماخلصتش ؟

— أعمل إيه لبنت الأروبة .. عايزاه بجلاجل .

وأغرقت فى الضحك .. وبدا لى أن عم شلاطه قد وقع فى غرام جديد .. وأخذت أرقبه وقد اختفى رأسه بين كتفيه واحدودب ظهره ، وأخذ يخرج المسامير من فمه واحدا بعد واحد فيدقها فى القبقاب .. وسألته ضاحكا :

— بتحب يا عم شلاطه ؟

— يا ريت .. يعنى هو أنا كبير على الحب والا وحش ؟

— أستغفر الله !

و لم يثر عجبنا كثيرا أن يعود الرجل لصناعة قبقاب أو عمل جلاجل لسبب أو لغيره ، ولكن الذى أثار عجبنا حقا هو أن يستمر فى الدق ، والطرق ، وتحويل الأخشاب من كوم الأنقاض وقطعها ومسحها ، و لم يكن هناك شك فى أنه لا يصنع منها قباقيب ، فقد كان يقطعها ألواحا طويلة عريضة .

وبدأ سكان الدور المحيطة يشكون من الضجة التى يثيرها الرجل أثناء الليل .. وحاول بعضهم نصحه بالكف عن الطرقات التى يحدثها ، ولكنه لم يرتدع .. فقد كان يواصل الليل بالنهار فى عمل ذلك الشيء المجهول الذى أخذ فى صنعه .

وحيرنى ذلك الشيء ، وظننته فى بادئ الأمر أثاثا ينوى الرجل صنعه لكوخه ، ولكنى لم أستطع أن أجزم أى نوع يصنع ، وخاصة أن كوخ الرجل المتواضع لا يكاد يحتمل فى داخله أى أثاث مهما ضؤل .

وأخيرا وضح الأمر .. واستطعنا أن نعرف كنه ذلك الشيء الذى انهمك عم شلاطه فى صنعه ، والذى ركز فيه جهده ، وضيع فيه وقته .. ولقد كان حقا شيئا عجيبا .

كان ذلك الشيء هو آخر ما يخطر ببال إنسان ، وآخر ما يمكن أن يفيد منه الرجل ، أو ينتفع منه بشيء .. اللهم إلا إذا كان ينوى بيعه .. وهو ما لم يفعله .

لقد كان يصنع سلما .. وعندما أقول سلما ، لا أعنى بالطبع هذا السلم الخشبى المتحرك المكون من عرقين طويلين مثبتين بقطع مستعرضة كالذى يستعملونه فى الحوانيت وفى البيوت ، بل أعنى سلما خشبيا عريضا ثابتا متينا ، ذا درجات ودرابزين متقن الصنع ، مما يستعمل عادة فى الدور الكبيرة ولقد أثبت عم شلاطه فى صنعه أنه نجار ماهر .

أجل .. هذا هو ما كان الرجل منهمكا فى صنعه ، وهذا هو ما بدأ فى تركيبه .

أين ؟ .. على الأرض بجوار كوخه ، ملاصقا له .

لم ؟ ولمن ؟ من يدرى ؟

لقد أخذ « عم شلاطه » فى تركيب السلم ، مبتدئا من الأرض ، ومنتهيا إلى مكان ما فى الهواء .

لقد كان السلم ينتهى إلى لا شىء ، أو إلى السماء .

ودهشنا جميعا ، ولم يعد هناك من حديث لأهل الحى سوى سلم عم شلاطه ، وقال بعضهم إن شلاطه صنع السلم للصعود إلى الله ، وقال البعض الآخر إنه يصعد فيه ليشم الهواء أو للزحلقة على الدرابزين .

وهكذا أصبح السلم موضع النكات ، وأضحى الزوار يتوافدون عليه من الأحياء المجاورة ، من السيدة والحلمية وعابدين .

ولم يحاول عم شلاطة أن يحدث عنه أحدا .. بل كان يجلس أمام صندوق الكازوزة يرقب الناس فى صمت وكأن الأمر لا يعنيه .

وأخذت أتحرق شوقا إلى معرفة سر السلم ، وأحاول أن أستدرجه إلى الحديث عنه ، ولكنه كان يمعن فى صدى ، حتى مررت به ذات غسق فى يوم صيف ركدت ريحه واشتد حره ، وجلست بجواره أسامره كما تعودت ، وكنا وحيدين ، وقد خفت حركة المارة وخيم الصمت ، وران السكون ووجدتها فرصة لإعادة الكرة علىّ أفوز منه بما يطفىء غلتى .

قلت له :

ــ برضك يا عم شلاطة مش عايز تقول إيه حكاية السلم ؟!

ــ يا أخى أنا مش فاهم السلم دا تاعبكم فى إيه ؟ انتو شايلينه على اكتافكم ؟ واحد شايل دقنه والتانى تعبان ليه ؟

ــ بس عايزين نعرف يوصل لفين ؟

ــ ليه ؟ أنا قلت لحد منكم تعال اطلع عليه ؟

ــ لا . بس فايدته إيه ؟ معمول ليه ؟

ورأيت الرجل قد أطرق برأسه ، وساد الصمت برهة ثم رفع إلى عينيه وقال فى صوت متئد كأنما يوشك أن يفضى إلىّ بسر خطير :

— عايز تعرف عملت السلم ليه ؟

وأجبته بمنتهى اللهفة :

— طبعا ؟

وبدأ الرجل يقص قصته ، والرجل كما قلت محدث ماهر وقصاص ممتاز .

ولا أظن لدى الفراغ من الورق الذى يسمح بسرد قصته كما رواها . فإذا صرفنا النظر عن التفاصيل والتحابيش فإننى أستطيع أن ألخص القصة فى أن بيت العنتيل كانت تسكنه جنية تدعى سوسو العنتيل ، وهى زوجة المرحوم الطيب الذكر السيد شندى العنتيل .

وسوسو هذه كانت فى حياتها امرأة لعوبا .. مفرطة الجمال فياضة الأنوثة ، عاهرة فاجرة ، وقد أذاقت زوجها الأمرين ، وانتهى به الأمر إلى أن ضبط أحد عشاقها معها فى مخدعها ، ولكنها استطاعت أن تهربه من النافذة ، وحاولت أن تفر هى الأخرى ، ولكن زوجها لحق بها وأخذت تعدو منه فى أنحاء الدار حتى لحقها قرب الباب فأمسك بها ورفعها بين يديه وقذفها من أعلى السلم فهوت إلى بير السلم ودق عنقها ، و لم يكتف الرجل بهذا بل لحق بها إلى أسفل السلم وأمسك بعنقها وجزه بسكين فى يده .

ويهز عم شلاطه رأسه ويتمم قصته فى صوت مؤثر :

— وكانت الدنيا ضلمة ، والوقت نص الليل ، والهوا بيصفر ، وهبت الريح ففتحت درفة الشباك اللى على السلم ، وطلع القمر من بين السحاب فوقع نوره من الشباك على القاتل فى يده السكينة والجثة وهى كوم من اللحم غارق فى بحر من الدم .

و لم أستطع أن أكتم ضحكة انطلقت منى وقلت ساخرا :

— دى قديمه دى يا عم شلاطه . ما هى دى الحكايه اللى طول عمرنا بنسمعها عن العفريته اللى فى بيت العنتيل !

وأطرق عم شلاطه برأسه ثم قال فى صوت خفيض :

ـــ حقيقى دى الحكاية اللى انتو عارفينها . لكن ماتعرفوش بعد كده حصل إيه !

ـــ حصل إيه ؟

ـــ أنا قعدت عشرين سنة فى بيت العنتيل ، كل شهر فى نفس الميعاد لما البدر يبقى فى تمامه أشوف العفريته وهى بتسقط من فوق السلم ، وبعدين تقول لى أنا فى عرضك خلص على .. فأجيب السكينة وأروح مخلص عليها لغاية ما اتهد البيت وافتكرت خلاص انها راحت .

وحمدت ربنا اللى ريحنى من تعب القلب ومن البلاوى اللى كنت باشوفها ، وقلت استريح من الدبح شويه واقضى بقية العمر مستريح بعد تعب عشرين سنة .. هى كانت حاجه بالساهل ؟ ده كان دبح ، وأنا راجل طول عمرى مصلى ومستقيم ، حقيقى البنت تستاهل الدبح ، وحقيقى أنها كانت ـــ على رأى من قال ـــ عفريته ، لكن أهو برضه دبح ، وسكينه بتحز فى رقبة ودم بيسيل ، وحكاية مالهاش آخر ، ماتنتهيش أبدا ، كل شهر عمال على بطال ، وأنا قلبى برضه ضعيف ، أصل البنت بينى وبينك كانت بنت ملعب ، وكان القمر يطلع عليها من الشباك وهى راقدة بقميص النوم تحت السلم ، حاجه تهبل ، جتة إيه ، وصدر إيه ، وبطن إيه ، ووراك إيه ، تقولش مهلبيه ، والا بلوظه ، حاجه كده طريه وناعمه وزى القشطه ، تتشفط وتتلهط ، دى كان عليها جوز درعَه زى كيزان العسل ، والا وسطها ، ياهوه ، تقول ملبن والا خص ، وعنيها يا خويه عليها غمزه تسطل فشر الحشيش ، المقصود ، اللهم اخزيك يا شيطان كانت بنت ملعب قوى ، وكانت أول ماتشوفنى تروح غمزه بعينها ومصرخه بدلع وتقول :

ـــ عم شلاطه .

ـــ عايزه إيه من عم شلاطه .

ـــ خلص علىّ يا عم شلاطه .

ـــ يا شيخه كفايه دبح بقى .

— اقصف رقبتي يا عم شلاطه .

— يا ستي ماتسيبينا بقى من الشغله دى .

— يوه .

وانا أصلي رقيق ما استحملش صراخ النسوان .. فكنت اروح ماسك السكينه وجازرها ، وعلى كده كتير ؟! عشرين سنه .

وما صدقت البيت اتهد وقلت استريح وأستكن فى العشة وصندوق الكازوزة وربنا يتوب على من الدبح والتقتيل .

وفات يومين والتالت وأنا مستريح فى العشه ، وفى اليوم الرابع صحيت فى نص الليل على صوت عجيب زى ما تكون حاجه بتتهد ، وبصيت لقيت شباك العشه مفتوح ونور القمر طالل منه . أتابينا فى نص الشهر . اتلفت حواليه مالقيتش حاجه ، رحت نايم تانى ، ولكن بعد شويه سمعت نفس الصوت بس على شويه وبقى حاجه زى النهنهة .

أقول لك الحق اتخضيت ، رحت قاعد نص قعده وصارخ بأعلى صوت :

— مين هناك ؟

فرد على صوت حريمى نواعمى :

— يوه .. ينيلك يا عم شلاطه ؟ مالك بتصرخ كده ليه زى المجانين ؟ خضيتني وسيبت ركبى ؟ . أنا سوسو .

— رجعت تانى ؟!! هو ربنا ماتابش علينا منك ؟

— اخص عليك يا عم شلاطه .. هو انت زهئت منى .

— أبدا زهئت ازاى .. هى دى حاجه تزهق ؟!!

— اخص عليك يا خاين .

— ليه بس يا ستى . خاين ليه ؟

— عشان نسيت اللى بتعمله كل مره .

— آه .. مش يعنى اخلص عليكى . حاضر من عنيه .

ـــ لأ .. المره دى حاجه تانيه .

وبصيت لجتتها لقيتها مسلطحه على الأرض ، وكل فخد وفخذ فشر البلوظه .

حاجه تانيه ايه ياخويا ؟ اللهم اخزيك يا شيطان ، أنا رجل مؤمن ومصلى وماحبش المسخره .. شخطت فيها وقلت لها :

ـــ حاجه تانيه إيه يا بت ؟

ـــ يعني مانتش عارف ؟

ـــ اللى انا عارفه أنك بنت خباصه وهلاسه وتستاهلى قصف رقبتك .

ـــ ما هو دا اللى أنا عايزاه .

ـــ عايزه ايه ؟!!

ـــ قصف رقبتى .

ـــ طب وانا مالى ماتقصفيها .

ـــ أقصفها ازاى من غير سلم .. بعد ما تهدوا البيت وتكسروا السلم وتسيبونى كده محتاره مش لاقيه حاجه أنزل ارف من عليها تتقصف رقبتي .. هو دا برضه كان يصح ؟

ـــ يا ستى وانا مالى .. ذنبى إيه أنا .. التنظيم هو اللى هد البيت .. أعمل لهم إيه ؟

ـــ تنظيم مش تنظيم أنا ماليش دعوه .. أهو تطلع تنزل تجيب لى سلم من تحت طقاطيق الأرض .. ذنبى فى رقبتك .. انت المسؤول .

وفضلت تنهنه وتعيط وتلالى :

ـــ أنا عايزه سلم ، وأنا عايزه سلم ، وأنا مالى هاتولى سلم .

ـــ يا ستى اسكتى .. خلينى اتخمد .

مافيش فايده راسها وألف سيف إلا عايزه سلم تقصف بيه رقبتها .

تفتكر بعد كده اقدر ما اعملش السلم ؟

عرفت بأه ليه عملت السلم ؟ .. استريحت ؟

* * *

وتذكرت فجأة أن اليوم هو منتصف الشهر العربى . أى اكتمال البدر ، وأحسست برغمي برجفة تسرى فى جسدى ولكنى سرعان ما ضحكت من نفسى . إن كل ما يرويه الرجل لاشك خرافات مخبول .

وتلفت حولى أرقب السلم وأخذت أتصور وضع البيت قبل أن يهدم فلم أشك أن السلم الجديد وضع بالضبط مكان السلم القديم .

ونظرت أسفل السلم .. فإذا بى أرى آثار دماء داكنة متجمدة !!

وأحسست بركبتى ترتجف ووجدتنى أزدرد ريقى بصعوبة ونهضت من مكانى وودعت الرجل فى عجلة قبل أن ينتصف الليل .

ــ أجل .. إن منظر الدماء قد قطع عندى كل شك ، وعدت إلى الدار وقضيت ليلة لا أراكم الله مثلها .. كلها أحلام بالجن والقتلى ، والمذبوحين ...

وفى الصباح مررت بعم شلاطه من بعيد فوجدته منهمكا فى ذبح بعض دجاجات حملتها إليه إحدى خادمات الدور المجاورة ، ووجدت الفراخ تتخبط فى دمائها أسفل السلم .

لعنة الله على .. كان يجب أن أذكر أن ذبح الدواجن كان ضمن الخدمات التى يؤديها عم شلاطه لأهل الحى .. حتى لا أفزع كل هذا الفزع من منظر الدماء المتجمدة فى أسفل السلم وأصدق خرافات الرجل .

فى الناصرية

هنا مستوقد الناصرية .. خرابة متربة .. ذات هضاب ووهاد .. وسراديب وجحور .. وأرض ليست فيها قطعة مستوية ممهدة .. فهى أشبه بنموذج مصغر لجبل مقفر .. يقوم بين أطلال بائدة ورسوم حائلة .

جولتنا فى هذه القصة بمستوقد الناصرية !

ألا تعرفونه ؟!

ألم يسبق لكم الذهاب إليه ؟!

ولكنكم لاشك تعرفون ـــ على الأقل ـــ ما هو المستوقد .. ذلك الشىء الذى يضرب به المثل فى القذارة ، وهو بمعنى أوضح المستقر الأخير لزبالتكم وقاذوراتكم ونفاياتكم .

إنه مجمع الزبالين .. أو جهنم الحمراء فى أرضنا السعيدة .. أو ـــ بتعبير أقل تواضعا ـــ الفرن الذى تحرق فيه الزبالة .

والمستوقد عادة .. لا يقتصر على مجرد حرق الزبالة .. بل إن له فى بلدنا هذا منافع جمة .. يحصل عليها من الحرارة الناتجة من عملية الحريق .. أهمها : إنضاج قدور الفول المدمس ، وتسخين المياه لحمامات السوق ، واستعمال التراب المحروق الذى يسمى « قصرمل » فى عمل مونة للبناء .

وهكذا نستطيع أن نستنتج دون حاجة منا إلى إجهاد أذهاننا أنه فى كل مستوقد .. معمل فول .. وحمام .. ومصنع مونه .

والآن تعالوا بنا إلى المستوقد .

لنبدأ السير من ميدان السيدة .

قفوا فى الميدان .. والسيدة فى ظهركم .. ومراسينا على يمينكم .. والكومى على يساركم .

يمموا شطر الميسرة .. واتجهوا إلى الكومى ، وسيروا بجوار سور مدرسة السنية .. على الرصيف من فضلكم .

لا تريدون السير على الرصيف ؟!

— لم ؟!

لأن رائحة الصنان المتصاعدة من المباول المتناثرة على الرصيف تزكم أنوفكم .. لا بأس عليكم .. تحملوا .. فنحن ذاهبون إلى مستوقد .. لا إلى حفلة راقصة .

لندخل الآن فى شارع الناصرية .. تاركين على يسارنا المبتديان ، وشارع خيرت .. لا داعى للسرعة .. تمهلوا .. نحن فى نزهة .

قفوا بنا قليلا .. أمام هذه المقلة .. إنها شهر مقلة فى حى السيدة ، ودعونا نبتاع شيئا من الكناسة ، فهى أرخص كثيرا من شراء صنف بعينه .. وهى حاوية لجميع الأصناف الموجودة فى المقلة .

أجل !.. أجل !.. بقرش كناسة سيكفينا جميعا .. وستجدون فيه الكثير من الفول السودانى ، أو على الأقل بقاياه .. وفتافيته .

اطلبوا الزوادة من فضلكم .. وزوادة الزوادة .. إنها تقاليد لابد منها .. والرجل نفسه قد أدخلها فى حسابه ، فهو لم يعطنا كل حقنا .. لأنه واثق أننا سنستجدى بقيته .. إنه أشبه بالساسة الإنجليز .. أم هم الذين يشبهونه ؟!

والآن هيا بنا نتمم سيرنا .. متلكئين مقزقزين .. منشدين ما يحلو لنا من الأغانى .. ولتكن « سلم على » .

« لما جابلنى .. وسلم على .. يابوى يابوى » .

تمهلوا .. لقد وصلنا .

أين هو المستوقد ؟

إنه لا يبدو له أثر .

أعرف ذلك .

أعرف أنه بلا لافتة ، وبلا شيء يدل عليه .. ومع ذلك فإنى أجزم أننا وصلنا .

هذا هو الشارع المتسع قليلا ، وهذا هو جامع الرماح ، وقد دخلت واجهته عن بقية الشارع ، وبدت أمامه رحبة متسعة .. وهذه هى حارة « درب البندق » .. وزقاق جامع الرماح .

أجل ! لقد وضح الأمر ، وانجلى الشك .

كيف لا .. وهذه هى « جزارة الإخلاص » .. وعم حسن الطرشجى الواقف على باب الحمام .

إن البابين متقاربان .. باب المستوقد ، وباب الحمام .. أو باب القذارة ، باب النظافة .. أو على الأصح باب القاذورات محملة فى عربات .. وباب القاذورات محملة على الأجساد .

دعونا ندخل فى الباب الأول .. أعنى باب المستوقد .

إنه يفضى بنا إلى معبر ضيق مترب مظلم ، فى داخل البيوت .. هيا بنا نعبره .

ثم قفوا بنا .

* * *

هنا مستوقد الناصرية .. خرابة متربة ، ذات هضاب ووهاد ، وسراديب وجحور ، وأرض ليست فيها قطعة مستوية ممهدة .. فهى أشبه بنموذج مصغر لجبل مقفر ، يقوم بين أطلال بائدة ، ورسوم حائلة .

وفى ركن من أركان الأرض الخربة ، وبين هضبتين من هضابها ، رصت القدور المتبعجة السوداء الملأى بالفول وقد وقف أصحابها يحكمون عليها الغطاء ، بعد أن خلطوا الفول ببعض العدس حتى يعطيه لونا ورائحة ..

ويتلفت أصحاب القدور حولهم فى قلق وانتظار كأنما يبحثون عن شىء ، ويظهر لهم فجأة هذا الشىء الذى يبحثون عنه ، ويصيح به أحدهم مستحثا :

ـــ يالله يا شحيبر .

ويخرج شحيبر من ثنيات الأرض كأنه شيطان أو جنى لا يكاد يبدو به شىء من الأدميين ، فهو أشبه بالجلد المقدد أو بقطع البسطرمة القديمة العفنة ، أو بفردة حذاء قديمة طال بها العهد بجوار العتقى حتى تحجر جلدها .. أو .. أو .. بأى شىء عدا الآدميين .

هيكل عظمى أسود أغبر .. لو ذبحناه لما وجدنا به سوى جلد وعظم .. وحتى الجلد نشك فى وجوده إذ يبدو لنا أن الجلد الأصلى قد تآكل ، وحلت محله طبقة سميكة سوداء من العرق والتراب والهباب .

وتقدم شحيبر .. رب المستوقد ، وحاكم الخرابة .. متثاقل الخطى .. وبدا وجهه غائر العينين ، بارز عظام الوجنتين ، حاد الأنف ، واسع الفم فاغره ، كأنه غراب يلهث ، أو كلب ظمآن ، قد وضع على رأسه لبدة جمدت عليها الأقذار حتى تشققت ، وغطى هيكله العظمى بقميص ممزق كشف عن ذراعين كالعصى ، وساقين كالجريد ، وقد حزم وسطه بسير من الجلد أسود عريض .

وعادت أصوات أصحاب القدور تستحثه « مد شويه يا شحيبر .. الله يخرب بيتك زى ما عطلتنا » .

و لم يمد شحيبر ، و لم يبد عليه أنه قد تأثر كثيرا من دعوتهم عليه بأن يخرب الله بيته .. إذ كان واثقا تمام الثقة أنه ليس هناك خراب يمكن أن يصيب بيته أو خرابته أكثر من الخراب الذى بها .

ووقف « شحيبر » يستلم القدور ويعدها ويكشف عليها واحدة واحدة ، حتى لا تكون إحداها مشروخة أو ناقصة .

وانتهى « شحيبر » من عملية الاستلام .. ثم قال بصوت أجش :

ـــ ثمان قدور فول ، وأربعه بليله .

وكان قوله هذا بمثابة أمر لأصحاب القدور بالانصراف . وهبط الرجال من الخرابة متفرقين فى الشارع ، وألقى « شحيبر » على القدور نظرة مترفقة وأخذ يربت عليها ويتحسسها فى رفق وكأن بينهما صلة وداد أو رابطة قربى .

كان « شحيبر » يحس أن القدور هى كل ما له فى الحياة ، هى مورد رزقه ، ومؤنس وحشته .. هى بنوه وخلانه فى دنيا حرمته البنين والخلان ، كان يقضى معها جل وقته ، وكان يعرفها قدرا قدرا . ولم يكن يشك فى أنها تعرفه وأنها تبادله وفاء بوفاء وحبا بحب .

وكان يسمى كلا منها باسمها الخاص فإحداها زكية والثانية بهية أما الأخرى المكسورة الحافة فهى أم السعد والرابعة هانم ، والخامسة والسادسة إلخ ...

وانحنى شحيبر على بهية ، ليرفعها على كتفه ويهبط بها إلى باطن الأرض حيث الجحر الذ تنضج فيه القدور .. عندما سمع صوتا يصيح به :

ـــ شحيبر .

ورفع الرجل جسده من فوق القدر والتفت إلى ناحية الصوت الذى أتى من الشارع وأجاب بصوته الأجش :

ـــ طيب .

ثم هبط من الخرابة إلى الشارع ، وصاح بالمنادى سائلا إياه :

ـــ آخر نقله ؟

ـــ أيوه .

ـــ فرغها عندك .

وبدأ « سيد » يفرغ حمولته .

ولم يكد ينتهى من عملية التفريغ حتى صاح :

ـــ حا .. شى يا بتاع الكلب .

ورفع فى يده سوطا ثم أهوى به على ظهر الحمار الذى شد إلى عربة الزبالة وسارت العربة تقرع بعجلاتها أرض الشارع وانطلق سيد يغنى بصوت مرتفع رنان :

يابو الطقية الشبيكـه مين شغلهـا لك

شغـلت بـالى إلهى ينشغـل بـــالك

وقف شحيبر برهة حائرا فيما يفعله ، أينزل القدور إلى الجحر أولا ، أم ينقل الزبالة إلى الفرن ، ثم استقر به الرأى على أن ينتهى من الزبالة والفرن ، ثم يتفرغ لنقل القدور ورصها فى الجحر ، وأمسك بأحد الغلقان وبدأ يحول أكوام القمامة قاذفا بها فى فجوة فى منتصف الخرابة ، وهذه الفجوة كائنة فى سقف الحجرة التى بها الفرن فتستقر الزبالة فى أسفلها ، ثم يهبط شحيبر إلى جحر مظلم ينتهى بفتحة الفرن الذى تتأجج فيه النيران فيقذف فى جوفه بالقمامة ليزيده اشتعالاً ويزيد عرقه تصببا وتسطع على وجهه النيران الحمراء فيبدو كأنه من زبانية جهنم .

وانتهى أخيرا من نقل الزبالة وقذفها فى الفرن واتجه إلى القدور فرفع بهية وحملها على كتفه وسار بين هضاب الخرابة متجها إلى فتحة أخرى غير التى يهبط منها إلى الفرن ونزل فى جحر أطول من الآخر وأشد ظلمة ، وبدأ ينحدر فى داخله . فلما وصل إلى منتصفه كانت الظلمة قد تكاثفت حتى لم يعد يبصر طريقه فأنزل القدر عن كتفه وتحسس بيده مكانا فى جدار السرداب فمست يده مصباحا من الصفيح ، وأخرج من جيبه علبة ثقاب فأشعل المصباح ، وعاود الانحدار فى الجحر الضيق الملتوى حتى وصل فى النهاية إلى متسع يقع فى ظهر الفرن ، فتشع فيه الحرارة حتى تجعله أشبه بالجحيم .

وينزل شحيبر القدر ، ثم يعود أدراجه لإحضار بقية القـدور ويرصهـا متجاورة ، ثم يربت عليها ويتحسسها فى حنان ويتركها فى الجحر حتى ينضج ما بجوفها من فول وبليلة .

وعندما انتهى من عمله كان الليل أرخى سدوله ، والظلمة قد شاعت فى أنحاء الخرابة .. فأضحى كل ما بها أسود معتما إلا فتحات صغيرة بدت فى منتصفها وقد شع منها الضوء .

وكانت الفتحات تبدو غريبة وسط المستوقد الخرب المظلم ، أو على الأقل

تبدو غريبة للزائر الجاهل بالمكان ، ولكننا لو سألنا أهل زمان ، أو سألنا شحيبر ، لأنبأنا ببساطة .. أنها الفتحات الكائنة فى قبة الحمام .. الملاصق للمستوقد ، والذى يستمد حرارته من فرن المستوقد الذى تحرق فيه الزبالة .

وهكذا يتبين أن سطح المستوقد كائن فوق الحمام ، وأن المكان الذى يتوسط الخرابة هو سقف الحمام ، وأن الفتحات التى يشع منها الضوء هى قبة المغطس .

وجلس شحيبر بجوار القبة وقد أخرج من جيبه نصف سيجارة فأشعلها وأخذ يشد منها أنفاسا بطيئة طويلة ، وهو يحملق فى النجوم ، ثم يلقى نظرة سريعة على قبة الحمام وقد تعالت منه أصوات المستحمين والمكيساتية .

وقد يبدو غريبا ما وصفناه من قذارة الرجل ، رغم أن الحمام لا يبعد عنه بضع خطوات ، ورغم أن لولاه لما كان الحمام فهو الذى يهيىء له الوقود ، وهو الذى يسخن مياهه .

ولكن شحيبر كان يجد أن استحمام مثله ضرب من ضروب العبث ، ما فائدة أن يضيع الساعات فى إزالة الأتربة والقاذورات عن جسده ، ثم يعيدها إليه فى ثوان معدودات ينزل فيها إلى الفرن ، أو إلى جحر القدور ، أو لينقل فيها الزبالة . لا . لا . ليس هناك داع للاستحمام قط . إن جسده قد تعود الأقذار ، بل لقد أضحى هو نفسه مركبا من الأقذار ، ومن يدريه أنه لو استحم وأزال القاذورات ، ألا يبقى منه سوى كوم من العظام ، هذا إذا لم تكن الأقذار قد نفذت إلى عظامه ؟

وهكذا أقنع نفسه أن الاستحمام شىء خطير ، وأن المياه لابد أن تكون عدوا لدودا له ، واقتنع من الاستحمام بالجلوس بين آونة وأخرى لمراقبة المستحمين من فتحات القبة ، ومشاهدتهم يهبطون بأجسادهم إلى المغطس الذى تكاد مياهه تصل إلى درجة الغليان ، ثم يبصرهم وقد خرجوا من المغطس فاستلقوا على مضجع حجرى وأقبل عليهم المكيساتى وقد وضع فى يده كيسا جلديا ، وأخذ

يدلك جلدهم ويوسعه حكا وفركا ، ويخرج منه أكوام الأقذار المبرومة السوداء .

وتصيب شحيبر رجفة من ذلك المنظر . إذ يتخيل نفسه وقد تمدد مكان الرجل ويبصر بعين الوهم جسده وقد تحلل وذاب تحت كيس المكيساتى . فلا ينتهى من عملية التكييس حتى يكون قد انتهى هو ، و لم يبق منه شىء ، وتحول بفضل كيس المكيساتى إلى كوم من الأقذار المبرومة كتلك التى يراها تخرج من أجساد المستحمين .

ويبعد « شحيبر » عينيه فى فزع عن الفتحة التى يطل منها . ويدعو الله ألا يوسده هذا المضجع المروع البشع ، الذى لاشك أنه سيلقى فيه حتفه لو توسد مضجعه .

وفى تلك الليلة لم يحاول أن يطل على رحبة الحمام ، فقد كان يحس بشىء من التعب فضل معه الاستلقاء فى موضعه ، و لم تمض برهة حتى راح فى سبات عميق .

و لم يدر كم طال به النوم حتى استيقظ فجأة . جلس فى مكانه يفرك عينيه وتلفت حوله عله يعرف الوقت وبدا له أن الساعة قد جاوزت منتصف الليل فقد ران السكون على كل ما حوله و لم يبد فى نوافذ الدور أثر لضوء .

وأدهشه أن يجد فتحات الحما ما زالت مضيئة ، وأن يصل إلى أذنيه بعض أصوات كأنما هناك إنسان ما زال يستحم .. فما كان الحمام يفتح أبوابه للمستحمين حتى تلك الساعة المتأخرة من الليل ، وما تعود أن يرى الفتحات تضىء بعد منتصف الليل .

وتحرك شحيبر من مكانه وركع على ركبتيه وأطل بعينيه من إحدى الفتحات ليرى هذا المستحم العجيب فى جوف الليل ، من يدرى ؟ قد يكون سارقا ، فيستطيع أن يضبطه ، ويبلغ عنه عم إبراهيم الحمامى صاحب الحمام..

وبهت شحيبر ، وكتم أنفاسه ، فقد وقع بصره على منظر أذهله .

قد أبصر أمام عينيه إنسانا قد هبط بجسده فى مياه المغطس ولم يبد منه سوى رأسه وكان الرأس : رأس امرأة !

هذه ولاشك زوجة المعلم إبراهيم ، أو ابنته أو إحدى قريباته قد انتهزت فرصة الليل ، فهبطت من الدار الكائنة بجوار الحمام ، لتنعم بخلوة هادئة .

ومضت فترة وشحيبر يحملق من الفتحة .. ينتظر البقية .. بقية المرأة ، وطال انتظاره وهو متصلب فى مكانه حتى بدأت المرأة تخرج بجسدها من المغطس رويدا رويدا .

وأخيرا وقفت فى منتصف الحمام ، عارية بلا أى ساتر ولا حجاب .

وابتلع شحيبر ريقه وأخذ يحدث نفسه مشدوها :

هذه لا يمكن أن تكون امرأة عم إبراهيم ، فإن من الحمق أن يتخيل أن امرأة عم إبراهيم لها مثل هذين الثديين المستديرين المتحجرين ، ولا مثل هذين الردفين المتماسكين .

من تكون إذا ؟!

لاشك أنها امرأة تسللت إلى الحمام لكى تستحم خلسة .

وبدأ الشيطان يوسوس فى نفس الرجل ويغريه بالمرأة وييسر له أن يهبط إليها ، ولكنه أخذ يحذر نفسه قائلا :

ـــ أنا أهبط إلى الحمام ؟ أجننت ! أنا أدخل الحمام ؟

وأجابه الشيطان :

ـــ وماذا فى ذلك ، إنك لن تستحم .. إنك تستطيع أن توهمها أنك عم إبراهيم صاحب الحمام .. أو حتى تهددها بأنك ستشى بها .

ـــ ولكن هبها طلبت منى أن أستحم معها ؟

ـــ وماذا فى ذلك .. أستحم !

ـــ أنا أستحم ، هذا معناه الموت .. لا .. لا .. لن أنزل إليها .

ـــ أيها الغبى ، إذا كنت تخاف الاستحمام ، فلا ضرورة له ، قل لها إنك لن تستحم ؟!

وهكذا أقنع شحيبر نفسه بالنزول إلى الحمام ، وبألا يضيع من نفسه هذه الفرصة الذهبية ، وسرعان ما اتجه إلى الباب الخلفى للحمام الذى يطل على المستوقد ، فدفعه فى رفق وأخذ يهبط الدرج فى حذر وسكون ، ولم تمض لحظة حتى كان فى داخل الحمام ، أمام المرأة العارية وجها لوجه .

وفزعت المرأة فى بادئ الأمر ، ولكن شحيبر أخذ فى طمأنتها وتهدئتها . وبدأ يدخل معها فى دور ملاطفة ومغازلة وإعجاب . فاطمأنت المرأة إليه وسرى عنها .

وفجأة سألت السؤال الذى لم يكن يخشى سواه .. قائلة « ألا تنسوى الاستحمام » وحاول أن يخفى فزعه وأنبأها أنه قد استحم . فضحكت المرأة وأخبرته أنه لا يبدو عليه أنه قد استحم منذ مائة سنة ، وأصرت على أن يستحم معها .

ورفض شحيبر ، فعادت تصر ، وأمسكت به تريد أن تدفعه بثيابه إلى المغطس ، فعدا منها هاربا نحو الباب ، ولكنه وجد أمامه فجأة .. ما روعه .. وجعله يتسمر فى مكانه من فرط الذعر .

لقد أبصر أمامه المكيساتى وفى يده سلاحه الماضى : الكيس الجلد .

وأدرك شحيبر أن المسألة لابد أن تكون مؤامرة لاغتياله بالحموم والتكييس ، وصرخ صرخة مدوية ، وحاول أن يفر من الرجل ، ولكن الرجل أمسكه بشدة وطرحه أرضا ونزع عنه قميصه ، وظهر رجل آخر وحمله الرجلان من ساقيه وقدميه فقذفا به إلى المغطس .

وصرخ شحيبر وأحس بجسده يذوب فى الماء الساخن وبذل جهده حتى استطاع الخروج من المغطس .. فتناوله الرجلان وأضجعاه على المضجع المميت ، وبدأ المكيساتى عمليته المروعة ، وشحيبر يتلوى بين يديه ويصيح مولولا :

« آه يا شحيبر .. مت يا شحيبر .. يا خسارة قدر الفول والبليله حاتتيتم بعدك يا شحيبر » .

وأخذ شحيبر ينظر إلى كوم الأقذار التى تخرج من جسده وهو يعلو ويكبر ، ويرى جسده يتضاءل وينكمش .. وشيئا فشيئا أحس بأطرافه تتآكل وتنقرض ، وأنه يفنى قطعة قطعة ، فأغمض عينيه وصاح فى صوت يائس مبحوح : « ارحمونى .. أنا فى عرضكم . تبت إلى الله » .

* * *

وفتح شحيبر عينيه وهو يقول « تبت إلى الله » ، وتلفت حوله وتحسس جسده وأعضاءه ، فإذا به ما زال سليما وإذا به ما زال فوق قبة الحمام لا أسفله ، وإذا بكل ما رآه لم يكن إلا حلما .

وقفز الرجل من مكانه فى فرحة شديدة وهبط إلى الجحر الذى رص فيه القدور ، وأخذ يحتضنها باكيا ، وهو يقول :

ـــ تبت إلى الله ، إذا كنت أبص لغيركم .. سامحينى يا زكيه .. وانت يا بهيه .. وانت يا ام السعد .

ومن ذلك اليوم ، لم يحاول شحيبر أن يقترب من فتحات الحمام ، خشية أن تتحقق الأحلام فيضيع على حد قوله « فى شربة ميه » .

فى المبتديان

وأخيرا استقر بى الرأى على خطة مثلى لم أشك فى أنها ستوصلنى إلى بغيتى .. وتركت الدار متجها إلى المدرسة كعادتى .. عابرا شارع الخليج ، ودلفت فى الحارة المفضية إلى جنينة رشيد والمسدودة بسلسلة مشدودة بين حجرين لمنع دخول العربات ، ثم اتجهت إلى المبتديان مارا بالقصر .

فى ليلة من ليالى رمضان .. انتفخت منى المعدة واسترخت الأطراف ، وتمددت على إحدى الأرائك كالمترنح الثمل .

وأحسست بالنوم يهاجمنى بشدة ولما تمض بضع دقائق على انتهائى من الإفطار ، وخشيت إن أنا استسلمت للنوم ، أن يثقل الأكل على معدتى فأصاب بعسر هضم وكابوس يقض مضجعى ويكتم أنفاسى .. فنهضت متثاقلا ، و لم أجد طريقة لطرد النوم سوى مغادرتى الدار :

و لم يكن لدى من الجهد ما يعيننى على ارتداء ملابسى أو النزول إلى البلد .. ورأيت أن خير ما أمضى به سهرتى هو أن أذهب إلى صاحب لى يقطن على مقربة منى ، فنضيع الوقت فى السمر أو فى لعب الطاولة .. ولا سيما وأن داره لا تكاد تخلو من شلة مرحة مسلية ، يترأسها دائما خال صاحبى ، شيخ هازل ماجن طروب مهذار .. يدعى محمود أفندى الباشكاتب أو كما تعودنا أن نناديه « الباشكا » .

وضعت الروب على كتفى ودسست قدمى فى شبشب وسرت أطرقع به حتى

بيت صاحبى .

وهناك وجدت الرفاق يتندرون بأحاديث الغرام ومغامرات العشق ، وسمعت أحدهم يروى كيف اضطر إلى أن يبيع الذرة المشوية حتى يستطيع أن يقف بعربته أمام بيت فتاة كان يعشقها فيتيح لنفسه أن يراها أطول مدة ممكنة دون أن يتشكك أحد فى أمره ، ويروى لنا آخر كيف اشتغل ساعى بريد ليوصل خطابا إلى عشيقته .

ونظرت إلى محمود أفندى فوجدته قد وضع ساقا على ساق وبدا سرواله الفانلة الطويل واصلا حتى قدميه ، وأخذ يهز قدمه هزات منتظمة وقد تدلى منظاره ذو الإطار الذهبى على أرنبة أنفه ، ودفع بطاقيته إلى الوراء حتى استقرت على مؤخرة رأسه ، واستندت عباءته على طرف كتفيه ، وتدلت بقيتها على الأرض وبدا من خلالها جلبابه الأبيض .

وكان الباشكا .. صديقا حميما لنا .. ولم يكن تفاوت السن بيننا وبينه ليقف عقبة فى سبيل صداقتنا .. ورفع الكلفة بيننا .. فقد كان صبى الروح .. شديد المر .. جم الفكاهة .

ورأيت الرجل يقلب شفتيه وهو يستمع إلى مغامرات الرفاق ثم يهز كتفيه ويقول فى سخرية :

ـــ هذه كلها أشياء تافهة .. أين تذهب مغامراتكم بجانب مغامراتنا ، وأين شقاوتكم من شقاوتنا ، وعفرتتكم من عفرتتنا ؟!.

وكنا نعرف أنه كذاب كبير ، وأن ثلاثة أرباع أقاصيصه عن نفسه من نسج الخيال وبنات الوهم . ومع ذلك فقد كنا نتلهف على سماعها ، فقد كان الرجل قصاصا مجيدا ، وراوية متفننا ، وكانت أحاديثه تحملنا إلى أجواء شديدة الشبه بتلك التى تحملك إليها ألف ليلة وليلة .

وصمت الرجل برهة وقال له أحدنا يستحثه على الحديث :

ـــ قص علينا إحدى مغامراتك الغرامية .. يا سيد باشكا .

وتنحنح الباشكا وهز رأسه وبدا كأنه يستجمع شوارد أفكاره ثم أخذ يقص علينا قصته قائلا :

ــ كان ذلك فى أيام الصبا ، عندما كانت الدنيا دنيا .. وعندما كنتم أنتم ما زلتم فى عالم الغيب ، وكنا نقطن فى جنينة لاظ فى حى السيدة ، وكنت أنا طالبا بالمدرسة الثانوية الملكية (الخديوى إسماعيل) وكنت وقتذاك رئيسا لفريق الكرة ، ورئيسا لفريق الجمباز (كان الرجل لاشك كاذبا فى دعواه فقد أنبأنى صاحبى « ابن أخته » أن والدته أخبرته إنه كان أخيب خلق الله) وكنت كذلك شهيرا بالوسامة والوجاهة ، وكنت أستطيع أن أوقع أية فتاة بمجرد إشارة من يدى ، ومع ذلك فقد كنت زاهدا فيهن مترفعا عنهن .

وتعودت وبعض أصحابى عند عودتنا من المدرسة أن نمر بقصر كبير ذى حديقة غناء يقع فى جنينة رشيد على ناصية شارع المبتديان .. وتعودنا أن نبصر أمامه فى بعض الأحيان عربة فخمة مطهمة شد إليها جواد أبيض عربى أصيل وكانت العربة من النوع المغلق الصغير ذى الباب الواحد ، وحدث ذات مرة ونحن نمر بباب السراى أن لمحنا امرأتين تهبطان فى الحديقة ، وقد اتشحتا بالحبرة السوداء ، والبرقع الأبيض الذى لا يظهر منه سوى عينين تتألقان .

وتكررت رؤيتنا للمرأتين واستطعت أن أميز أنهما امرأة وفتاة ، وبدأت أحس ببعض اللهفة على رؤية الفتاة والحديث معها ، وأخذت أتسكع بعد الخروج من المدرسة بين الدواوين والمبتديان حتى يحل موعد خروجها .

وبدأ الرفاق يسخرون منى ويتهموننى بالحب .. ولم يضايقنى بالطبع أن أتهم بالحب ، ولكن أثارنى منهم لهجتهم الساخرة وتشبيههم إياى بالشحاذ الذى أحب بنت السلطان ، ونصيحتهم لى .. بأن أشيل على قدى وبأن أمد قدمى على قد لحافى .

أثارتنى منهم هذه السخرية وأنا الملىء بالثقة والكبرياء ، وزادتنى تعلقا بالفتاة .. رغم أنى لم أكن أبصرت منها أكثر من شبح متشح بالسواد ، وعينين

تتألقان من خلال البرقع الأبيض ، ورغم أنى لو أبصرتها بين عشرات سواها لما أستطعت أن أميزها من بينهن .

وهكذا أخذت سخريتهم تشعل النيران فى صدرى .. حتى انتهى بى الأمر إلى أن أوهم نفسى أنى قد أضحيت صبا مولعا ، وأنه قد استبد بى داء الحب وأحرقتنى نيران الهوى .

وفى ذات يوم جلس الرفاق حولى يتسلون بالسخرية منى واستشطت غضبا ، ودفعنى الطيش والحمق إلى أن أقسم لهم أننى أستطيع — لو شئت — أن أنال من الفتاة ما أريد ، وأن الفتاة تحبنى ، وما من عقبة هناك تستطيع أن تقف بينى وبينها .

وضج الرفاق بالضحك ، وأبدى أحدهم استعدادا لأن يراهننى .. إذا أنا استطعت فقط أن أحدثها ، وأحسست بأن كبريائى قد جرحت وكرامتى قد أهينت ، فقبلت الرهان .

وذهبت إلى الدار فى ذلك اليوم وقد شرد منى الذهن ، واستبدت بى فكرة واحدة هى لقاء الفتاة .

وكنت أعلم أن رب القصر — والذى لم أشك فى أنه أبوها — أمير تركى هو الأمير برهان نور الدين ، وأخذت اعتصر الذهن علّه يدلنى على طريقة أدخل بها الدار .. لألقى ربته .

واستيقظت فى اليوم التالى وقد تملكتنى الحيرة واستبد بى الضيق ، وأخذت أقلب إحدى صحف الصباح فوقع بصرى فى إحدى صفحاتها على خبر استرعى التفاتى وأخذت أعيد قراءته مرارا وتكرارا .

كان الخبر ينبئ أن بعض مجوهرات ابنة الأمير التركى برهان نور الدين قد سرقت من القصر وأنهم يشكون فى أن بعض الخدم قد سرقها ويعدون كل من يرشد إلى السارق بجائزة مالية كبيرة .

وأحسست بفرحة بالغة ، وبدا لى أنى قد وجدت إلى غرضى منفذا ، وأن

المجوهرات الضائعة ستكون مطيتى إلى الفتاة ، وبدأت أفكر فى أفضل الطرق التى أتبعها .. وأخذت أضع الخطط وأحبك التدابير .

وأخيرا استقر بى الرأى على خطة مثلى لم أشك فى أنها ستوصلنى إلى بغيتى ، وتركت الدار متجها إلى المدرسة كعادتى عابرا شارع الخليج ودلفت فى الحارة المفضية إلى جنينة رشيد والمسدودة بسلسلة مشدودة بين حجرين لمنع دخول العربات ، ثم اتجهت إلى المبتديان مارا بالقصر ، ثم اتخذت طريقى فى شارع الدواوين حتى المدرسة ، ولكنى بدلا من الدخول إلى المدرسة دلفت إلى حجرة عم سعيد البواب القائمة على باب المدرسة وكان بينى وبينه ود مقيم فأعطيته بضعة قروش وسألته أن يعيرنى بعض ملابسه .

و لم تمض بضع دقائق حتى تسللت من المدرسة ، وقد ارتديت أحد قفاطين « عم سعيد » وعلت رأسى عمامة بيضاء وانتعلت فى قدمى مركوبا أحمر وأمسكت فى يدى مسبحة أحرك حباتها بين أصابعى ، وفى اليد الأخرى كيسا ملأته بالرمل والحجارة ووضعت فى جيبى كتشينه ابتعتها من حانوت أمام المدرسة .

وهكذا قصدت القصر كأنى أحد فقراء الهنود ..

ووقفت أمام الباب وقلت للحارس فى لهجة آمرة إننى أريد أن أقابل أحدا من أهل الدار فى أمر هام .

ووقفت أناقشه برهة ، وأفهمته أنى سأظهر سارق المجوهرات المفقودة وسأدلهم على مكانها ، ولكنه نظر إلى فى سخرية وأنبأنى أن أهل الدار قد خرجوا .. ثم سمعته يتمتم لنفسه قائلا : « بلا نصب بلا تدجيل » .

و لم أشك فى أن الرجل كاذب ، وأن أهل الدار ما زالوا بالدار وخاصة أنى سمعت صوتا نسائيا يصيح من الداخل : دعه يدخل يا عم إبراهيم .

وفسح لى الطريق فدلفت إلى الداخل ، وعبرت الحديقة متجها إلى مدخل القصر ، وصعدت بضع درجات رخامية ثم وقفت أمام الباب المتسع وقد تملكتنى

الحيرة والخشية .

ووصل إلى الصوت النسائى آتيا من شرفة فى أعلى المدخل آمرا إياى بقوله « اطلع » .

وعبرت الباب إلى صالة فخمة رحبة الأرجاء واتجهت إلى سلم فى نهايتها ، وصعدت إلى الطابق العلوى .

ووقفت أمام دهليز طويل أقيمت على جوانبه أعمدة رخامية ، وترددت برهة و لم أجسر على التقدم ، حتى عاد الصوت النسائى يأمرنى مرة أخرى « ادخل » واتجهت إلى مصدر الصوت الذى كان ينبعث من حجرة فى نهاية الدهليز ووقفت بباب الحجرة مشدوها مأخوذا .

من يصدق هذا ؟.. أنا لاشك حالم واهم ؟ فإن الواقع لا يمكن أن يغدق على الإنسان بمثل هذا الكرم ، وتلك الأريحية ؟

لقد وجدت نفسى فى مخدع نسائى تتضوع منه رائحة عطر ينفذ من الأنوف إلى القلوب ، ليسكر النفوس ويدير الرؤوس ، ووجدتها هى .. قد اتكأت على فراش فى وسط المضطجع !!

إى والله .. لقد وجدتها هى .. بلحمها ودمها .. لا طيف ولا شبح ولا خيال :

وجدتها هى لا بالحبرة ولا بالبرقع .. بل بقميص حريرى وردى .. قد انحسر عن كتفين كالمرمر .. وعنق كالعاج .. قميص قد أبدى من الفتنة والسحر أكثر مما ستر .

وتملكنى من رؤيتها نشوتان .. نشوة فتى فى مخدع أنثى شبه عارية ، ونشوة الانتصار الخارق والفوز المبين على الصحاب الهلافيت الذين لا يقدروننى حق قدرى .

ووجدت ذهنى الأحمق يشرد برغمى عما هو فيه من متعة أشبه بالأحلام ليعدو وراء الرفاق ويتلهف على وجودهم ليشهدوا بأعينهم ما قد بلغه العبد

الفقير .. وأخذت أتخيل أقوالهم الواحد بعد الآخر ، وتصورت ألفاظ التبجيل والاحترام التى سيخلعونها على .

ويبدو أن وقفتى أمام الفاتنة محملقا فيها عينى كالأبله قد طالت .. فقد وجدتها تهتف بى فى دلال وعجب كأنها تحاول أن توقظنى :

— هش .. انت يا سيدنا .

وأفقت من شرودى وأجبت مرتجفا :

— محسوبك يا هانم ...

— ما بالك هكذا مبهوتا مشدوها ؟

— لا مؤاخذة ، إنها نوبات سرحان تصيبنى من آن لآخر . عندما أكون تحت سلطان الوحى .

— وحى ؟!!

— أجل .. وحى الأسياد .. الذين يلهموننى المعرفة .

وبدا عليها شىء من الفزع وصاحت متسائلة :

— بسم الله الرحمن الرحيم .. أعليك أسياد ؟. أأنت مريوح ؟

— لا .. لا يا ست هانم .. إن الأسياد لا يركبوننى ، ولكنى أركبهم .. إنى أنا الذى على الأسياد ، وليسوا هم الذين على .. هم المريوحون منى .. ولست أنا مريوحا منهم .. إنى أستخدمهم فى معرفة ما أود معرفته .. إنهم فى الواقع بالنسبة لى .. ليسوا سوى خدم ، ولكنى أسميهم أسيادا من باب التجاوز ليس إلا .

— آه .. إذًا فأنت الذى تسيطر على الأسياد ؟

— بالطبع . إنى أستدعيهم وقتما أحب وهم لا يرفضون لى طلبا .. بل يجيبوننى إلى كل ما أريد .

— وكيف يجيبونك ؟

— بالرمل والودع والورق ، وكل ما يخطر لك على بال .

— مدهش !!

— وأستطيع كذلك أن أقرأ الكف والفنجان .

— يا سلام !!

— لا يستعصى على شيء فى عالم الغيب .. إنى أعلم ما تقدم وما تأخر !!

— أتستطيع أن تعرف من الذى سرق الجواهر ؟

— بل وأحضره مكبلا بالأغلال ، هذه مسألة بسيطة .

— إلى هذا الحد ؟

— بل وأكثر من ذلك .

— وما اسمك .. وكيف تعلمت كل هذا ؟

— خاشم مخموش مخماشيان .

وانطلقت منها قهقهة عالية ، ثم استعادت الاسم ثانية بقولها :

— خاشم إيه ؟

— محسوبك خاشم مخموش مخماشيان ، يضرب الرمل ويشوف الودع ، ونبين زين نبين .

— ولكن الاسم صعب جدا .. ألا تستطيع اختصاره ؟

— تستطيعين أن تنادينى كالأسياد .

— وكيف ينادونك ؟

— يدللونى .. بشوشو .. أو خشخش .. أو حمحم .. أو خشاخش أو خشخوش .. أو شمشم .. أو ..

— كفى .. كفى .. شوشو أفضل .

— أمرك يا هانم .

— ولكنك لم تقل لى كيف تعلمت كل هذا ؟

— من فضل ربى يا هانم .. إنها مهنة ورثناها أبا عن جد .. كل عائلتنا كذلك .. كانت جدتى رحمها الله تسرح فى الطرقات بالودع ، وكان جدى يفرش كيس الرمل بجوار سيدى الحبيبى . أما أبى فيفتح الكوتشينة بحارة الميضة .

ـــ وأمك ؟

ـــ الخائبة الوحيدة فى العائلة ، إنها تسرح بمشنة فول نابت .

وابتسمت ونظرت إلى بطرف عينيها وقالت لى هامسة .

ـــ اجلس يا شوشو .

وأحسست بجسدى يترنح من كلماتها الهامسة وبنظرتها الفاتنة ، وتربعت أمامها على الأرض ، وأخذت أبسمل وأسبح وقد أغمضت عينى ثم أخرجت الأوراق من جيبي ونشرتها بجوارى ووضعت الكيس جانبا وقلت متسائلا وأنا أهتز يمنة ويسرة :

ـــ تحت أمرك .. الأسياد فى خدمتك .. كيف تريدين أن أظهر السارق ؟. بالودع .. بالرمل .. بالورق .. ؟ اأمرى .

ـــ دعنا من السارق الآن .. هناك شيء أهم .. أريد أن تنبئنى بمستقبلى .. أريد أن تقرأ لى الفنجان .

ثم مدت يدها إلى بفنجان على منضدة بجوارها وأردفت قائلة :

ـــ قل .. ماذا ترى ؟

وأخذت أتأمل فى الفنجان وأفحص بعين خبير .. وحاولت أن أتبين به شيئا .. فلم أجد سوى نغبشة سوداء وبيضاء وبقايا بن راسبة فى القاع .

وبعد طول فحص وتدقيق بدأت أقول فى صوت خافت ملؤه الخطورة :

ـــ هذا كثير .. الطريق أمامك طويل معقد ، والحساد على جوانبه يضعون لك العقبات وينصبون لك الشراك .

ـــ يا ساتر يا رب .

ـــ وأرى أحدهم شديد الخطورة ، يحاول أن يمسك بك ليعوقك عن وصول هدفك ، وأنت ممعنة فى الجرى تحاولين التخلص منه .

ـــ وهل سأتخلص منه ؟

ـــ ستتخلصين منه وستبلغين هدفك بعد عناء وجهد .

ـــ الحمد لله .

ـــ وأمامك خير كثير سيأتيك عن طريق لا تتوقعينه ، وهناك سفر قريب ستعودين منه إن شاء الله بالسلامة .

وهكذا أخذت ألقى الأقوال التى يلقيها كل قارئ فنجان .. أقوالا عامة تنطبق على كل إنسان فى كل زمان ومكان .

وانتهيت من تلك الأقوال وهى تهز رأسها مؤمنة على ما أقول ، ثم صمتت برهة وأخذت أحدق فى عينيها ثم أعدت النظر فى الفنجان وقلت فى صوت أشبه بالهمس :

ـــ أرى أمامك فى نهاية الطريق عاشقا يتلهف عليك ، وأنت لاشك تتلهفين عليه ؟

وسمعتها تهمس :

ـــ صفه لى .

وبدأت أصف العاشق .. أو على الأصح أصف نفسى قطعة قطعة ، أسمر الوجه ، أسود العينين .. حالك الشعر .. وهكذا .. لم أترك شيئا بى إلا وصفته .

ونظرت إلى نظرة حالمة متمنية ، وهمست ضاحكة :

ـــ ألا ترى فى ذراعه سبحة ؟

وضحكت وقلت لها :

ـــ وفى قلبه لوعة وفى نفسه حرقة .

ثم نهضت إليها واقتربت منها فى رفق ، ومازلت أنظر فى الفنجان ، وسمعتها تسأل :

ـــ أتراه يقترب ؟!!

ـــ يقترب ويقترب ، ويحتويك بين ذراعيه ، ويضع على شفتيك شفتيه ، ويمزج أنفاسك بأنفاسه .

وساد الصمت ، وكيف كنت أستطيع النطق وقد قرنت القول بالفعل ، وأطبقت بشفتي على شفتيها ورحنا فى نشوة لم يكن يوقظنى منها إلا رغبتى فى أن يرانى أصحابى الساخرون .

وفجأة .. وجدت الباب يدفع بشدة .. وسمعت صوتا نسائيا يصيح بغضب جنونى :

ـــ كيف تستقبلين عشاقك فى مخدعى .. أيتها اللصة المجرمة .. لقد وضح الأمر ، لاشك أنك أنت التي سرقت المجوهرات وأعطيتها لعشيقك هذا .

وصمت الصوت لتتمالك صاحبته أنفاسها وعادت تهدر :

ـــ وهكذا لا نكاد نخرج حتى تتركى العمل والكنس والمسح وتستلقى فى الفراش وترتدى ثيابى ، وتستقبلى عشاقك .. وهكذا كنت سأظل مخدوعة فيك لولا عودتى المفاجئة .

ونظرت إلى الباب فوجدت الفتاة صاحبة الحبرة والبرقع الأبيض ، وأدركت أن كل ما حدث لم يكن إلا عبث خادمة ، وأدركت كذلك مبلغ حرج موقفى وأننى سأتهم بأنى عشيق الخادمة ، وأنى مشترك معها فى سرقة المجوهرات .

وأقبل من بالدار على صوت الصراخ .. ووقفت والخادمة نتبادل النظرات فى حيرة وخوف وقد أمسكت بالفنجان فى يدى وسمعتها تهمس سائلة :

ـــ ماذا تراه يفعل فى الفنجان ؟

وأجبتها فى أسى وحسرة وأنا أنظر فى الفنجان :

ـــ أراه سيذهب إلى القسم ويرن علقة ويبيت على الأسفلت .

وصمت « الباشكا » وأخذنا نحملق فيه منتظرين أن يتمم القصة ، ولكنه لم يتكلم وأخذ يهز ركبته فى سكون فقلنا نستحثه :

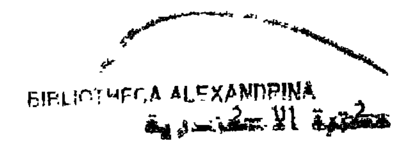
ـــ وبعدين !!؟

ـــ ولا قبلين .. ذهبت إلى القسم ، وبت على الأسفلت حتى حضر إلى أبى وعلم الحقيقة وتوسط فى إخراجى .

ونظرنا إلى ابن أخته نستفسر منه عن مدى ما فى القصة من حقيقة .

وهز ابن أخته رأسه وأجاب :

ــ الشطر الأخير .. صحيح مائة فى المائة .. فإن والدتى طالما أخبرتنى أن له سوابق كثيرة فى الذهاب إلى القسم والمبيت على الأسفلت .. أما بقية القصة .. فالله بها أعلم .



فى سيدى العتريس

ويتحرك الرجل من باب البيت متجها إلى الحانوت .. فإذا علمنا أن البيت كائن فى شارع سلامة فى حى السيدة ، وأن الحانوت يقع بجوار سيدى العتريس استطعنا أن ندرك أن المسافة بين البيت والحانوت لا يمكن أن تتجاوز بحال من الأحوال أربعمائة ياردة .

« يا نحيف القوام ، التجافى حرام » .

هبط « السيد على » درجات السلم بخطواته المتثاقلة وهو يترنم بأغنيته الحبيبة إلى نفسه ، البغيضة إلى زوجته السمينة أم أحمد أو « أم لفندى » كما تطور الاسم أخيرا عندما أصبح ابنها أحمد موظفا فى الحكومة .

والسيد على ، هو الاسم المختصر لسلسلة أسماء يستطيع الإنسان معرفتها بوضوح فى اللافتة المعلقة على حانوت العطارة الذى يملكه صاحبنا بجوار سيدى العتريس ، وهى السيد على أحمد إسماعيل المهياص .

« المهياص » هو لاشك لقب العائلة الكريمة ، بدليل أن الرجل يأبى التنازل عنه ، بل يضعه موضع المفاخرة ، وهكذا نستطيع أن نجزم أن الجد الأول للسيد على كان مهياصا ، وأنه قد ورث عنه أبرز صفاته التي دعت الناس إلى تسميته بها وهى المهيصة ، وأن صاحبنا كان مهياصا ابن مهياص .

والرجل المهياص — حسبما أعرف — هو الهليهلى الضاحك العابث ، الماجن ، الذى لا يحمل هما ، ولا يثقل على نفسه بأحزان ولا أشجان .

وهكذا كان السيد على .. لا يذكر إنسان أنه قد رآه متجهم الوجه أو مقطب الجبين ، وما سمعه أحد يثور أو يغضب ، وما خرجت من فمه ألفاظ السباب إلا على سبيل المزاح والفكاهة .

ولا أظن هناك حياة سهلة هينة منتظمة لا تغيير فيها ولا تبديل كحياة السيد على ، ويكفى المرء لكى يكتب تاريخ حياة مثل هذا الرجل أن يصف منها يوما ، ثم يضربه فى عدد أيام حياته .

وهو يفاخر دائما بأن كائنا من كان — حتى ولا أم أحمد نفسها — لم يستطع أن يعكر صفو حياته ، أو يحول مجراها السهل المستقيم ، وهو يضبط مواعيده وحركاته وسكناته مع الشمس .. ويقول إن الشمس لا تختل ولا تتوقف ، يستيقظ مع شروقها وينهض متمهلا متباطئا لأنه لا يرى فى الحياة ما يستدعى العجلة ، وما تفعله فى يوم يمكن أن تفعله فى يومين ، بلا جهد ولا مشقة ، ويقول فى تبرير فلسفته :

— ولا تعدو ولا تجرِ ، إن الحياة طويلة .. فلا تنهك نفسك بالعدو فيها ، فتصل إلى النهاية مبهور الأنفاس محطم القوى .. سر على مهل ، وتكلم على مهل ، وكل على مهل ، وافعل كل شيء على مهل .. يكفى أن تفعل فى حياتك نصف ما تفعل .. فلو أنك ستسير فى حياتك ألف ميل ، وتتكلم مليون كلمة سر نصفها وتكلم نصفها .. ليس هناك ما يجبرك على أن تفعلها كلها ، فلن تقدم فى نهاية حياتك كشفا بكمية ما فعلت ، ثم .. ما الذى نفعله فى حياتنا ؟ شر وخير وشرنا أكثر من خيرنا .. وأى شيء نأخذ منها شقاء وهناء .. وشقاؤنا أكثر من هنائنا .. وبم نخرج منها ؟ بلا شيء .. ونصف اللاشيء لاشيء ، وما دمنا كلنا سنتساوى فى الخروج منها . فلم اللهفة إذن . وعلام اللهفة !!

وهكذا أقنع السيد على نفسه بألا يتعجل قط . وأنه يكفيه أن يفعل فى حياته الطويلة نصف أو ربع ما كان يجب أن يفعله فيما لو تعجل . ويحصل منها على نصف السعادة ، ونصف الشقاء ويخرج منها فى النهاية باللاشيء الذى سيخرج

به كل إنسان .

وينهض الرجل من فراشه بعد أن يقضى فيه فترة عقب الاستيقاظ وهو مفتح العينين يفكر فى هدوء ، ويتجه إلى دورة المياه فيمضى بها ما يقرب من نصف الساعة يقضى حاجته ، ويتوضأ ، ويدندن ، بمنتهى الراحة والبطء ، ثم يمضى نصف ساعة أخرى فى الركوع ، والسجود ، والتمتمة .

وفى خلال تلك الآونة تستيقظ أم أحمد على صوت دندنة السيد على ، وضوضاء المعلم عبده بائع الفول وهو ينادى : « الفول والبليلة السخنة » وتتحامل على كتل الشحم المتراصة على جسدها حتى تصل إلى المطبخ ، وتوقظ « البت سنيه » وتسلمها القرش والحله لتبتاع الفول قبل أن ينصرف المعلم عبده ، ثم تأخذ هى فى عمل الشاى .

ويتم السيد على صلاته ، ثم يخلع عنه الجلباب والطاقية ويتناول القفطان من فوق المشجب فيسطحه على جسده ، ويشد وسطه بالحزام الكشمير ، ثم يرتدى الجورب فوق ساق السروال الصوفى الذى لا يخلعه صيف شتاء ، ويدس رجليه فى الحذاء الأستك الفاقع اللون ، ثم يضع العباءة على كتفيه والطربوش فوق رأسه .

وتنتهى بذلك عملية اللبس التى لا يكف خلالها عن الدندنة والانتقال من أغنية إلى أغنية من « يا نور العيون آنست » إلى « سبانى سهام العين » إلى « متع حياتك » ، ثم يتجه بعد ذلك إلى المنضدة . حيث يلقى التحية إلى امرأته :

— صباح الخير يا ست أم احمد.

ولا ينتظر هو إجابتها .. بل يأخذ موضعه أمام طبق الفول الذى يتصاعد منه البخار .. ثم يلقى فى وسطه بما يقرب من رطل زبدة .. ولا تمضى بضع دقائق حتى يكون الرغيف المقمر ، وطبق الفول ، ورطل الزبدة ، أثرا بعد عين .

ويلتفت السيد على بعد ذلك إلى برطمان ملىء بالعسل النحل ثم يزيل عنه الغطاء متسائلا :

ـــ هل خلصت القراقيش يا أم أحمد ؟

وتهز أم أحمد رأسها علامة على أنها نفدت ، ويعود السيد على إلى التساؤل :

ـــ والغريبة التي ابتعتها من الحاج صبح ؟

ـــ خلصت ..

ويهز « السيد على » رأسه أسفا ثم يتوكل على الله ويتناول نصف رغيف آخر فيغمسه فى برطمان العسل ، ثم يطوح به فى جوفه ويطلق تكريعة إيذانا بانتهاء الطعام ، ويعقب على التكريعة بحمد الله ، وينظر إلى أم أحمد الصامتة المتربعة على إحدى الشلت تصنع لنفسها القهوة على السبرتو ويقول معلقا على التكريعة نيابة عنها :

ـــ صحة وعافية .. خف تعوم ..!!

وينهض السيد على بعد ذلك فيتناول عصاه الثقيلة ، ثم يلقى تحية الوداع إلى أم أحمد .

ـــ اقعدى بالعافيه يا ام احمد .

ثم يجيب على نفسه ، فهو واثق أن امرأته لن تكلف نفسها مشقة الرد عليه :

ـــ يعافى بدنك ويرجعك بالسلامه .

ثم يهبط الدرج خطوة خطوة مترنما بأعلى صوته : « يا نحيف القوام التجافى حرام » .

وتتصعب أم أحمد وتهز رأسها فى أسف وتتمتم قائلة :

ـــ ربنا يزيدك هيافه .. صدق من سماك « مهياص » .

ولا يكاد السيد على يصل الفناء حتى يتذكر أنه نسى شيئا ـــ فهو لابد أن ينسى شيئا .. أى شىء ـــ ويصيح بأعلى صوته :

ـــ يا أم أحمد .. أم أحمد .. لقد نسيت الشال .. أرسليه مع البت سنية .

ويتحرك الرجل من باب البيت متجها إلى الحانوت .. فإذا علمنا أن البيت كائن فى شارع سلامة فى حى السيدة وأن الحانوت يقع بجوار سيدى العتريس

أن ندرك أن المسافة بين البيت والحانوت لا يمكن أن تتجاوز بحال من الأحوال أربعمائة ياردة ، ومع ذلك فالسيد على لا يقطعها فى أقل من نصف ساعة ، فهو أشبه فى حركته بالمستعجله يتوقف أمام كل حانوت ، وينثر التحيات والنكات ذات اليمين وذات الشمال .

ويصل الرجل إلى حانوته بسلام .. وهو لا يملك إلا أن يصل بسلام .. فليس فى طريقه ما يستطيع أن يعكر عليه صفو السلام .. وقد مضى عليه ما يقرب من عشرين عاما لا يتحرك فى يومه إلا هذا المشوار يقطعه مرة فى الذهاب ومرة فى العودة .. أما فيما عدا ذلك فهو فى حالة سكون تام .

وينهض بندق — صبى السيد على ومعاونه فى الحانوت — من فوق الرصيف ويستقبل معلمه بأبلغ آيات الترحيب ، والتحيات والتفاريح .. ويبدو لنا بوضوح أن الصبى يماثل معلمه كثيرا فى المهيصة وأنه يعوضه عما يفتقده فى أم أحمد .

ويتناول بندق مفتاح الحانوت من السيد على فيفتح الباب ثم يبدأ بإخراج لشوالات ورصها فى الخارج ، ثم يضع بينهما مقعد السيد على الشبيه المصطبة .. وينطلق فى إحضار الشيشة .

وتتناثر التحيات من السيد على إلى الحوانيت المجاورة وبالعكس ، ويصيح لخواجه « أستيك » صاحب الفرن الأفرنجى المواجه للسيد على :

— صباح الخير يا خبيبى ، ميت خلاوه .

— صباح العيش الفينو يا خواجه نجف .. صباح الكيك والشريك والفطير و عجوه والبوريك .. ميت فل .

— ميت فل عليك يا خبيبى .. ازيك ؟

— رضا .. ازيك انت ؟

— الخمد لله .

— مبسوط ؟

— مبسوط كتير .

— كده تعجبني .. حد واخد منها حاجه .. يا خواجه الناجه كوا الناجه .

— ان شاء الله يكون القراقيش عجبوك .

— عجبوني وبس .. دانا كلت صوابعي وراهم ، يا سلام يا خواجه أستيك عليهم بالعسل النحل .. أحلى من شفايف المره الحلوه .. دقتهم ؟

— القراقيش ؟

— لأ .. شفايف المره الحلوه ؟

— أنا مش بدوق غير مدام أستيك .

— الله يكون فى عونك ، وهى دى شفايف دى . دى مقدده ، زى جلد الصرم .

— أنا مش بشوف غيرها .

— يا أخى ان شا الله تنطس فى عينك ، مابتشوفش البنت سنيه ؟

— سنيه مين ؟

— سنيه ملين .. يا ضلالى .. بتشوفها والا لا .

— أيوه بنشوفها .

— بتشوف شفايفها .

— بتشوف شفايفها ، لكن مش بندوقها .

— وبالنظر كده .. مش يعجبوك .. مش طعمين ؟.

— يا سلام يا خاج على .. خاجه كويس كتير ، خاجه خلوه ، زى العسل .

— ما هو دا اللى انا بقوله .. مش تقولى شفايف مدام أستيك .

— دى ست طيبه .

— إحنا قلنا حاجه ، مانا برضه عندى واحده زيها فى البيت ، لكن برضه الواحد لازم يشبرق نظره ، إن الله جميل يحب الجمال .. وحلوه .

— لا إله إلا الله .

— أيوه كده اتصلح . ابعت لى وقة قراقيش .. عندك فطير بعجوة ؟

ــ عندى خاجه خلوه خالص .

ــ ابعت عشره .. وحبشهم بشوية سميط على شوية أرغفة فينو .. يا الله كده اعمل لك همه .

وينتهى حديثه مع الخواجه أستيك ، فيميل بجسده ميلا خفيفا ليواجه المعلم أبو دومه الخضرى صائحا به :

ــ نظره يا معلم .. مفيش صباح الخير ؟ احنا كنا نايمين فى حضن بعض والا ايه ؟

ويترك المعلم أبو دومة الزبائن الملتفة حوله ، ويواجه السيد على ضاحكا مصفقا بكلتا يديه صائحا فى مرح :

ــ يا ميت صباح القشطه ، لا مؤاخذه يا معلم سيد .. الزبائن كانوا حاجبين نورك .

ثم أخذ يزيح الزبائن جانبا وهو مستمر فى صياحه :

ــ اوعى يا جدع كده منك له .. خلونا نشوف القمر . يا أهلا وسهلا .

ــ أهلا بيك ، ازاى الواد دومه ، مش اتصلح شويه على الدوا اللى اديتهولك امبارح ؟

ــ اتصلح قوى ، الحمد لله ، والله كان فيه الشفا أحسن من ميت دكتور .

ــ دكتور مين خليها على الله ، دى وصفه عارفها من تلاتين سنه . حاجه متخبش أبدا ، وازاى البت الصغيره ؟

ــ بتبوس إيديك ، والله فرحت قوى بالحلق اللى بعته لها ، يلزمك إيه النهارده ؟

ــ والله نفسى فى صينية تورلى ، وعايز تشكلها تشكيله على كيفك ، شوية فاصوليا ، على شوية كوسه ، على شوية بطاطس ، بس البطاطس بتاع امبارح كان وحش .

ــ دا كان شوال وخلص . غشنا فيه ابن الأروبه حنفى . وعايز إيه كمان ؟

ـــ أهو شوية كرفس على شوية جزر ، حبش بقى تحبيشه على كيفك ، هو انا ح اوصيك .

ـــ خليها على الله .

وهكذا ينتهى من الخضرى ، ثم يميل بجسده إلى الاتجاه الآخر فيواجه محروس الجزار فيلمح صبيه وقد أخذ يعلق اللحوم فيصيح به :

ـــ واد يا عكشه .. أمال فين المعلم ؟

ويحييه المعلم محروس صائحا من داخل الحانوت :

ـــ صباح الفل يا حاج .

ـــ صباح الدوش ، وبيت الكلاوى .. إنت مالك مستخبى النهارده كده عامل زى الست المزيره . اظهر وبان عليك الأمان .

وبرز المعلم محروس بجسده الضخم ووجهه الأبيض الأحمر ، وجلبابه الطويل الملوث بآثار الدماء وهو يهلل صائحا :

ـــ أهلا وسهلا .. يا مرحبا .. لازملك إيه النهارده ؟

ـــ عايزك تنقى لى حته من الموزه . حته ضانى مشفيه ، أحطها على صينية تورلى ، وعايز كام ريشه .. بس وضيهم على كيفك .

ـــ حاجه تانيه ؟

ـــ لا .. كفايه كده .

ـــ أنا حابعتلك شوية ممبار وحتة مخ ، ويكره اعمل حسابك حاجهز لك شوية كوارع على كيفك .

ـــ يا سلام عليك .. تعجبنى فى توضيباتك .

ـــ أقل ما فيها يا حاج .. دانت خيرك علينا كلنا .. الأمر بس .

ـــ عشت يا معلم .

ويحول الدفة بعد ذلك إلى اليمين قليلا فيغدق تحياته على الحاج معتوق تاجر الزبدة ويخبره أنه كان يوشك أن يأكل أصابعه وراء الزبدة عندما وضعها على الفول .

وهكذا لا تمضى بضع دقائق حتى يكون السيد على قد قضى حوائج الدار وهو جالس فى مكانه ومبسم الشيشة بين شفتيه يشد منها النفس تلو النفس وهى تكركر كأنما تجاوبه الضحكات .

ولا يشعر السيد على أنه محروم من شىء .. فهو يرى أحفاده الثلاثة كل يوم عند عودتهم من مدرسة محمد على ، وينعم بتدليلهم والحديث إليهم والضحك معهم ويمنح كلا منهم قرشا قبل أن ينصرف .. أما ولده أحمد — أو أحمد أفندى بعد أن أصبح موظفا — فهو يراه كل أسبوع عندما يحضر يوم الجمعة لتناول الغداء معه هو وزوجته وأولاده فى الدار .

ولاشك أن خير ما يكشف لنا عن سر ذلك الهدوء والنعيم الذى كان يشيع فى نفس « السيد على » ، هو ذلك الحديث الذى دار بينه وبين « الحاج معتوق » عندما كان الأخير يفضى إليه ذات مرة بهمومه ، ويشكو من مرارة الحياة .

قال السيد على وهو يهز رأسه وقد شاعت فى وجهه ابتسامة ملؤها الإيمان :

— الحياة حلوة يا حاج معتوق .. إن المرارة فى أفواهنا ، ومن كانت المرارة فى فيه فإنه « يجد مرا به الماء الزلالا » الحياة سهلة لمن لا يركب الصعب .. مستقيمة لمن لا يعوج ولا يلتوى .. هينة لمن يخلص .. لينة لمن يؤمن .

خذنى مثلا يا حاج معتوق . لقد مضى على عشرون عاما وأنا جالس فى مقعدى .. لقد توقفت أنا ، ولكن الحياة لم تتوقف .. لقد سار كل شىء بهدوء فى مجراه الطبيعى .. كأحسن ما يكون .. تزوجت امرأة طيبة .. ليس فيها من عيب سوى أنها لا تضحك ولا تتكلم .. لا بأس عليها .. سأضحك أنا وسأتكلم .. أنا أنجبت منها ابنا حبيبا .. من خير الأبناء .. عيبه الوحيد هو شدة شبهه بأمه .. عبوس صامت .. لا عليه .. لقد ذهب إلى المدرسة ، ونجح وتخرج فى المدرسة ، وأخذ الشهادة ، وأضحى موظفا ، وتزوج ، وأنجب أطفالا .. كل هذا وأنا جالس هنا .. أضحك ، وآكل ، وأتحدث ، ولا أحمل هما . لقد أنجبت ابنا وأحفادا أحب إلى من نفسى .. ماذا كنت أستطيع أن أفعل أكثر من هذا ؟

إن الحياة حلوة يا حاج معتوق .. دعها تسير ، ودعها تكيف نفسها كما شاءت ، لا تعقدها فإنها بطبيعتها سهلة .

* * *

تلك هى فلسفة السيد على وذلك هو سر بشاشته وهدوء باله وطمأنينة نفسه .. هو يجلس ، ويترك الحياة تسير هينة لينة سهلة ، فى مجراها الطبيعى .

ولكن هل طبيعة الحياة حقا تجرى سهلة ؟! أم أن ذلك منها محض خدعة ومحض إغراء ؟

ترى ماذا حدث بعد ذلك لحياته السهلة المستقيمة ؟

عثرة بسيطة ، والتواء من التواءات الحياة .. لقد حادت الحياة فجأة عن طريقها المستقيم .. فأجبرته على أن يركب الصعب .

أجل .. لقد مات ابنه .. أو على حد تعبيره .. زلت قدمه فى معبر الحياة فهوى إلى الفراغ .

لا يهمنا كيف مات ، ولكن الذى يهمنا هو كيف أضحى السيد على بعد أن مات ولده الحبيب .

لقد ذعر فى بادئ الأمر كما يذعر إنسان يفاجأ بصرخة أو لطمة وهو يجلس فى هدوء ، ولكن لم تمض بضعة أيام حتى بدأ يتجلد ويتمالك ، واتخذ مجلسه فى الحانوت مرة أخرى محاولا الضحك والحديث .. كأن لم يحدث شىء .. أو كأنه نوى أن يرغم الحياة على أن تعود سهلة هينه .

وجلس إليه الحاج معتوق يعزيه ويطيب خاطره .

وضحك السيد على قائلا :

— كلنا لها .. إنى لم أتعب فى شىء .. لقد جلست هنا وتركت الحياة تجرى ، ولقد أخذه الذى وهبه لى .. أليس للمعطى الحق فى أن يسترد ما أعطى ؟

وهز الحاج معتوق رأسه متعجبا من قوة جلد الرجل . لقد كان يتحدث عن ابنه وحشاشة كبده كما يتحدث عن رغيف خبز أو قطعة نقود .

وهكذا لم يكف السيد على المهياص عن الضحك والمهيصة ، وبدا للناس أنه قد قهر الحياة ولوى عنانها لتعود إلى الطريق المستقيم .

وقد يكون الرجل استطاع ذلك حقا ، ولكن بأى ثمن ؟!!

إنه ابنه الوحيد .. ثمرة خمسة وثلاثين عاما من الجهاد الصامت .. ابنه الحبيب العزيز .. الطيب الحنون الكامل . الذى لم يزل لسانه بعبث مرة واحدة .. كيف يهون عليه أن يفقده فى غمضة عين ..؟

وزاد هزال الرجل يوما بعد يوم . ووهنت قواه ، وهو ما زال يضحك ويغنى .. حتى كف ذات يوم عن الضحك والغناء .

لسبب واحد :

هو أنه لم يكن يستطيع الضحك ولا الغناء ، ولا حتى الحياة !..

وشيعت جنازته بالبكاء والعويل .

وبدا البكاء والعويل نشازا فى جنازته ، وهو المهياص الذى لم تنبس شفتاه يوما بغير الضحك والغناء ، وسارت الجنازة من ميدان السيدة إلى مدافن الإمام .

وفى الطريق خف البكاء وخفت العويل ، وأخذت الجنازة فى الاقتراب من المدفن عندما لاحت على جانب الطريق — فى إحدى الدور القريبة من المدفن — أعلام خضر وعلائم زينة .. احتفالا بعرس .

ودقت الطبول .. وصدحت الموسيقى .. وانطلقت الزغاريد .

والنعش يهل على مدخل المدافن ويشرف على قبور الموتى ..!

وهكذا خرج المهياص من الحياة — كما عاش فيها دائما ، تحف به مواكب الضحك والسرور ، وبدا كأن الأحياء أبوا إلا أنه يشيعوه بالزغاريد أو كأن الموتى يستقبلونه بدق الطبول ونفخ المزامير .

ولو استطاع الرجل أن يزيح غطاء النعش لأطل برأسه على القوم وهتف بهم :

« دقوا الطبول ودقوا .

« إنها فرحة اللقاء .

« لقاء الغائب الميئوس من لقائه فى أرضكم الفانية ..!

« أيها البائس المحزون .. خل عنك .. ليس فى الحياة ما يستحق العناء .

« كلنا إلى التراب نصير .. أو إلى السماء نطير .. فأرح نفسك ، ودع الحياة تسير » .

يا أمة ضحكت

الإهـــداء

إلى الحمير الكبار ...

أهدى كتابى هذا ...

فمنهم قد استلهمت وحيه .. واستوحيت حكمته .

ليتهم يقبلونه .. ويقرأونه .. ويفهمونه .. ثم يستحون .. ويعقلون ويندمون على ما يفعلون ..

أيها الكتاب .. ألا هل بلغت ؟!

لا أظن .. فما من حمار منهم سيعترف بأنه حمار ..

واحسرتاه على الإهداء .. لقد ذهب هباء فى هباء .

« يوسف السباعى »

مقدمة

تعودت عندما أطبع كتابا أن أبدأ الكتاب من الملزمة الثانية . أعنى أن يبدأ أوله من الصفحة التاسعة تاركا الثمانى صفحات الأولى لعنوان الكتاب وللأهداء والمقدمة ... وغير ذلك من « التحابيش » التى تعود الكتاب أن يرصعوا بها كتبهم كأقوال الشعراء وحكم الحكماء ، التى تمتُّ — أو قد لا تمتُّ — إلى كتابهم بصلة ... ولكنهم يضعونها لمجرد الوهم .

وفعلت بكتابى هذا ما تعودت أن أفعل .. وانتهى عبد السلام من جمع الكتاب وطبعه .. ولم يبق إلا الملزمة الأولى .. وبدأ إلحاحه على بأن أسعفه بالإهداء والمقدمة حتى ينتهى من الكتاب وينفض يده منه .

وأخذت أفكر فى الإهداء ..

ترى لمن أهديه ؟ ..

إلى أبى ؟..

انه يستحق منى أن أهدى إليه — لا كل كتاب — بل كل كلمة أكتبها .. فما أرانى إلا بقية منه .. أو تتمة له .. وما تحرك قلمى للكتابة إلا بفضله .. وما تأثرت فى حياتى بشىء كما تأثرت بكتابيه : الصور ، والسمر .

ولكنى سبق أن أهديت إليه كتابى الأول « أطياف » وأخشى أن يمل منى كثرة الإهداء .

إلى من إذا أهديه ؟.

إلى أحد كبار الكتاب ؟.. ولكنى أخشى أن أتهم بالتملق ...

وأخيرا فتح الله بالمُهْدَى إليه .. وأرشدنى إلى صاحب الفضل الأول على ف هذا الكتاب وأنا شخص لا أنكر الفضل على أصحابه .. فقد سبق لى أن أهديت كتاب نائب عزرائيل .. إلى عزرائيل .. فلم لا أهدى كتابى هذا .. إلى الحمير الكبار ؟!

وانتهيت من الإهداء .. وبقيت المقدمة .. وعاد عبد السلام يستحثنى .. وجلست لأكتب .. فإذا بى أصاب بعسر تفكير .. وإذا الذهن والقلم قد أضربا عن الكتابة .

وعبثا حاولت أن أكتب المقدمة .

وجلست أفكر فى حل المسألة .. فخطر لى خاطر .. لم أشك فى أنه سيخرجنى من ورطتى .. بل ويمكننى من إصابة عصفورين بحجر .

لم لا أطلب إلى أحد كبار الكتاب أن يقدم لى الكتاب ، فأستفيد من تزيين الكتاب باسمه .. وأستفيد من بعض كلمات المديح التى لاشك سيخلعها على وأخيرا يوفر على مشكلة التقديم .

وبدأت أستعرض الكتاب .. لأنتقى منهم واحدا .

وقفز إلى ذهنى اسم « توفيق الحكيم » .. فهو أحبهم إلى نفسى وأقربهم إلى قلبى .. وقلت : إن الرجل كما يبدو من كتابته .. لطيف ذكى ، كريم ، خفيف الدم .. وهو لاشك سيقدم لى الكتاب عن طيب خاطر .

ولم تكن لى به معرفة شخصية . فذهبت إلى صديق لى وله .. وأنبأته بما أريد .. فهز رأسه فى أسف وأخبرنى أنى مخدوع فى صاحبنا ، وحذرنى — وهو صديق له — أن أذهب إليه أو أطلب منه شيئا .

وظننت الصديق على خصام مع الكاتب الكبير ، فذهبت إلى آخر لم أشك فى أن العلاقة بينهما على خير ما يرام .. فأجابنى الصديق بأن كاتبنا الكبير لا يتحرك إلا بالنقود .. وأننى إذا أعطيته مائة جنيه فإنه لاشك سيرحب بكتابة التقديم .

وضحكت .. وقلت للصديق : إنه لو كان لدى مائة جنيه لوفرت على نفسى

مشقة الكتابة .

وفكرت بعد ذلك فى « المازنى » .. وهو أكرم الكتاب ، وأدمثهم خلقا ، وأكثرهم تواضعا .. وعلاقتى به على خير ما يرام .. ولكننى لم أشك فى أن الرجل مشغول .. وأنه لن يجد من وقته متسعا لقراءة الكتاب .. وأنه قد يقدم الكتاب — مجاملة لى — دون أن يقرأه .

وفكرت فى « العقاد » .. فخشيت أن يشتمنى فى مقدمة كتابى . وفى « طه حسين » فخشيت أن يحتاج لجزء أول يكتب فيه المقدمة .. على أن يكون كتابى الجزء الثانى أو لا يكون بالمرة ...

وفكرت فى « عباس حافظ » .. وهو أكثر الكتاب صلة بى .. فقد كان صنو أبى .. ولكننى خشيت — من فرط حبه لأبى وإخلاصه له — أن يكتب المقدمة عن أبى وليست عنى ولا عن كتابى .. فأضيع أنا بين الخلين الوفيين .

وفكرت فى « زكى مبارك » .. وهو صديق أبى أيضا ، ولكننى لم أشك فى أنه سيكتب المقدمة لا عن أبى ، ولا عن الكتاب .. بل عن نفسه .

وأحسست فى النهاية بيأس شديد .. ونظرت إلى قلمى وقلت :

« عيب .. اختشى . اكتب أحسن لك .. فما حك جلدك مثل ظفرك .. ما لك ولكبار الكتاب تستعين بهم على تقديم ما كتبت .. لو كان فيما كتبت خير .. فما بك من حاجة إلى من يقدم لك .. ولو كان به سخف .. فماذا تجديك القشرة البراقة .. تكسو بها اللباب الأجوف » .

* * *

ولكن ما بالنا قد شغلنا حين المقدمة فيما لا علاقة له بالمقدمة أو الكتاب .

أيها القارىء .. عذرا .. فما عاد هناك مكان لكتابة شىء ، فإليك الكتاب .. اقرأه .. واكتب أنت ما شئت من تقديم .

والسلام عليكم ورحمة الله .

« يوسف السباعى »